
روايات مصرية للجيب
ما وراء الطبيعة
أسطورة
إيجور
24
مكتبة
TELEGRAM NETWORK
2020


TELEGRAM
NETWORK
TELEGRAM
NETWORK

مقدمة

بالأمس قابلت د. (سامي)..
هل تذكرونه؟ إن من قرءوا (حلقة الرعب) منكم يذكرون جيدًا هذا الطبيب النفساني المتأنق وزوجته اللطيفة..
نعم هو ما زال حيًا.. بل هو حي أكثر من اللازم إذا صح هذا التعبير..
قابلته في النادي، وكان يرتدي (شورتًا) وفانلة ويمارس رياضة (الهرولة) - كما يسمونها هذه الأيام - وكان يجفف العرق بمنشفة على كتفه..
وتأملته في فضول.. ما زال اللعين وسيمًا كأنما خلق لفوره.. وما زال يحبّ الحياة

كهرة صغيرة تغفو في الشمس...
- «(رفعت اسماعيل)! ألم يضموك إلى معرض المومياوات بعد؟»
- «(سامي فهيم)! رجل في سنك يرتدى الشورت؟»
- «إنني اليوم في السبعين من عمري، والفضل لرياضة الهرولة التي لم أكف عنها يومًا..»
- «وأنا في السبعين بمعجزة ربانية ولا أعرف كيف».
- «ما زلت تحكى قصصًا مرعبة للناس؟»
- «إن الرعب هو..... هو حياتي وسر وجودي ذاته.. ويبدو أنني تحولت إلى شبح

أنا الآخر من كثرة ما عايشت ورأيت وسمعت..»

تأبط ذراعي في مودة، واقتادني إلى مائدة مستديرة في حديقة النادي؛ وطلب مني أن أشرب شيئًا.. طلبت فنجانًا من القهوة وطلب هو لنفسه - بالطبع - كوبًا من عصير الفاكهة.. ثم مال ليستند إلى قبضتيه بذقنه ويسألني في تؤدة:

- «هلا حكيت لي المزيد من حكاياتك هذه؟»

شعرت بأنه يسأل لمجرد المجاملة، غير راغب في هذا حقًّا.. لكنني ملتزم أمام قرائي الأعزاء.. لهذا سأحكي هذه القصة لهم.. ولهم وحدهم.....

مقدمة لما بعد المقدمة

أعود بكم الآن إلى عام ١٩٦٩..

تذكرون أنني - منذ العدد الحادي والعشرين - كففت عن إقحام نفسي في القصص، مكتفيًا بأن أحكي لكم كل خطاب يصلني من أحد هواة الرعب أو ضحاياه في أرجاء العالم...

في العدد الثاني والعشرين حكيت لكم كابوسًا يونانيًا واجهه أحد العلماء اليونانيين في (كريت).. لابد أن خوار (المينوتور) عبر طرقات (اللابيرنث) المظلمة ما زال يدوي في آذانكم....

في العدد الثالث والعشرين حكيت لكم عن رعب المستنقعات الإسكتلندي، ومأساة أربعة أشخاص سجنتهم الثلوج في كوخ قديم تلوكه العواصف.. كانت لـ (عزت) جاري حكاية قصيرة طريفة مع هذه المفكرة، لكني لن أحكي لكم ما حدث في هذه المرّة.. ربما فيما بعد.. فأنا اليوم بصدد أسطورة جديدة تمامًا..

في العدد الرابع والعشرين أنتقي خطابًا مسليًا.. هو أقرب إلى كراسة صغيرة الحجم كتبت بإنجليزية جيدة..

كانت هذه الكراسة في مظروف لصقت عليه طوابع تمثال الحرية الأمريكي وجواره حرفا U - S...

استنتجت - بذكائي المعهود - أنّ هذا الخطاب من الولايات المتحدة الأمريكية.. فلا يمكن أن يكون من (فنلندا) مثلًا..

وجالسًا في الصالة رحت أقلب الأوراق بحثًا عن كلمات مشئومة مثل (مصاصي دماء) أو (مذءوب) أو (زومبي) أو (مومياء) أو (لعنة) أو (لقد دبت الحياة في الجثة)!

فلم أجد لحسن الحظ...

هذا ـ إذن ـ خطاب خال من الرعب، لكنه يحوي الغرابة.. غرابة مثل غرابة الكاهن الأخير و (سالم وسلمى).. فالأمر إذن لا يستأهل قراءة المكتوب عند (عزت).. يمكنني أن أقرأه هنا في داري...

يبدأ الخطاب بداية ودية حقًّا:

«(مانهاتن) في ٣ ـ ٨ـ ١٩٩٩».
«مركز بحوث المخ».
«إيجور تاركوفسكي».
«سيدي الفاضل»:
«تابعت ـ بمزيد من شغف ـ صولاتك وجولاتك في عالم (الميتافيزيقا)، والآراء هنا في (مانهاتن) تتراوح بين مصدق ومكذب لك.. لكنك بالتأكيد تثير اهتمامًا لا بأس به، والمرء يستطيع أن يرفض البروفسور (إسماعيل) أو يقبله.. لكنه ـ حتمًا ـ لن يستطيع تجاهله..
وأنا أرى يا سيدي الفاضل أن خير ما تستطيع عمله هو أن تغدو أنت نفسك مركزًا لتجميع الخبرات الفائقة للطبيعة.. مرجعًا يسترشد به الناس، ويعرفون

خبرات الآخرين..، لهذا قررت أن أكتب لك عن خبرتي في هذا الصدد.. ولا أبغي منك رأيًا، فالأمر أكبر من آراء العلماء مجتمعين.. بل أرجو أن تعيرني سمعك، وأن تضع هذا الخطاب تحت إمرة أي مهتم بأمور (ما وراء الطبيعة)..

والآن. وقد أطلت كلامي. أرجو أن أبدأ في سرد قصتي، وستكون قصة شائقة تروق لك.. لكنّها تبدأ منذ أعوام طوال...

تبدأ في (بولندا) في سني الحرب العالمية الثانية»

الجزء الأول

(وارسو) – ١٩٤٢

- ١ -

أطلق الجنرال (سيدلتز جابلر) سيلًا من الأوامر الألمانية بدت لمن لا يفهم الألمانية: كأنها مدفع رشاش من المدافع التي يحملها جنوده.. فيض من حروف الشين والخاء انفجر في جندي المراسلة الذي يمتطي الدراجة البخارية جواره.. فصاح هذا يبلغ الأوامر للآخرين..

ورفع أحد الضباط جهاز اللاسلكي ليبلغ الأمر إلى رتل المدرعات، الذي وقف ينتظر البدء في نفاد صبر حقيقي...

وفي تؤدة.. أدارت الدبابات مدافعها نحو صف المباني.. صرير البرج إذ يدور حول

محوره.. وأنين الجنازير.. وحوش الدمار العملاقة تدير أعناقها نحو الفريسة.. ببطء... ببطء..

وهنا دوّت الصيحة التالية من الجنرال..

وكأنما بانتظار الانفجار شرعت المدافع تهدر.. مرات عديدة بلا توقف.. كأن أبواب الجحيم قد انفتحت.

الهواء نفسه يتذبذب من الصوت.. وحتّى الجنرال - بوقاره الآري العتيد - رفع كفيه المدسوستين في قفازين جلديين إلى أذنيه، ليمنع الصوت من أن يؤذيه أكثر..

رائحة الموت تعبق الجو..

وحين انتهى القصف كان صف المباني المتداعية في نهاية الشارع قد استحال إلى

كتلة من النيران ينبعث منها دخان أسود كريه الرائحة...

في رضا رفع الجنرال منظاره المقرب إلى عينيه وتأمل كل هذا الخراب الذي أحدثه..

كانت مجموعة البيوت هذه نوعًا من الشوكة في حلق القوات النازية تحول بينها وبين ابتلاع (وارسو) دون ألم.. ويومًا فيومًا صار معروفًا لدى الجميع أن رجال المقاومة البولندية يعيشون فيها ويرسمون خططهم فيها.. ولم يعد مفر من هذا الحل الجذري..

وشرع جندي المراسلة يتأمل قائده خلسة في فضول.

كيف يفكر الجنرال؟ إن جندى المراسلة البسيط لم ير أشخاصًا كثيرين في حياته يقومون بتدمير حزام كامل من المباني، مما قد يؤدي إلى قتل عشرات الأبرياء.. اليوم أسعده الحظ بأن يرى واحدًا من هؤلاء (العظام) الخارقين للطبيعة.. ربما لهذا صار (سيدلتز جابلر) جنرالًا.. إن وجهه جامد كالصخر لا يحمل أي تعبير من الأسف أو السرور، أو الترقب.. وجهه يحمل كل كبرياء العسكرية النازية وقسوتها، ربما لهذا هو القائد.. ربما لهذا.......

راتا تا تا تا... بوم!.. را تا تا تا تا!

صوت طلقات من مدفع رشاش... هناك فئران لم تزل حية في هذا الجحر.. فئران

مصرة على المقاومة.

التفت الجنرال إلى رتل الدبابات كي يبدأ التقدم..

وببطء راحت الوحوش تئن وهي تزحف على الأرض التي راح أسفلتها يتشقق من ثقل الجنازير...

اضرب فورًا.. اضرب في المكان الصحيح.. اضرب بكل ما لديك من قوة..

هذا هو شعار الجنرال الذي ينفذه حرفيًا الآن..

المدافع تهدر في كرات متتالية...

الدخان والتراب القادمان من المباني المنهارة المحترقة يزكمان الأنوف، ويجعلان الرؤية متعذرة حقًّا.

لكن الدبابات تواصل الزحف.. ووسط الضباب تبدو مثل ديناصورات عتيدة عادت للحياة..

ومن بين الأتربة لاحت أشباح رجال يحاولون الفرار أو الهجوم لا فارق...

إذ رفع الجنرال كفه آمرًا:

- «فليلتحم المشاة..»

وسرعان ما انطلق الجنود، ليغوصوا في بحر الدخان.. ودوى المزيد من الرصاص..

وارتجف جندى المراسلة، وتساءل: ترى كيف يكون مذاق الموت في الصباح الباكر؟ رائحة النهار الوليد ووجهك ملقى على أسفلت الطريق.. تشم دماء وتعرف أنها دماؤك.. ترمق أظفار يديك عالمًا أنك

تفقد وعيك ببطء، وأنك لن تراها بعد اليوم.. بعد الآن.. تعرف أن صلتك بهذا الجسد تتلاشى.. وأن...

را تا تا تا تا تا تا!.. بوم!...

المزيد من القتل...

* * *

الظهيرة تعلن نهاية المأساة..

انقشع الغبار تقريبًا فلم يبق سوى بؤر محدودة من دخان أسود متناثرة هنا وهناك، وكان صف المباني قد زال من الوجود نهائيًا، على حين يقف صف من الجنود حاملين بنادقهم مصوبة نحو صف

من المدنيين البولنديين، الذين وقفوا مبعثرة شعورهم ممزقة ثيابهم.
لم يتمكنوا من الفرار من دبابات الجنرال (جابلر) طوقت الشارع الخلفي أيضًا..
بعضهم مدنيون أبرياء.. وبعضهم ـ حتمًا ـ ثوار...
كيف يمكن التمييز بينهما؟ هذا عسير..
لكن الجنرال لا يمكن أن يتوقف لدى أمور تافهة كهذه.. إن البريء لن يضار كثيرًا لو عومل معاملة المذنب..
لهذا ترون هذا (المترليوز) الذي تم نصبه على عجل.. يمسك سلاحه جندي منبطح على بطنه، وجواره جندي آخر يعد له شريط الرصاص..

بعضهم فهم ما يحدث.. وبعضهم لم يشأ أن يفهم..
قال الجنرال في سأم وهو يضع معطفه على كتفيه ويشير لجندي المراسلة كي ينطلق بدراجته البخارية:
- «اقتلوهم.. وادفنوهم هنا**!**»
لم يصدّق جندي المراسلة أذنيه..
حتى وهو يسمع صوت الطلقات لم يصدّق..
حتى وهو يسمع الصرخات لم يصدّق..
حتى حين قرأ تفاصيل المذبحة في تحقيقات محاكمات (نورمبرج) بعد سنوات طوال؛ لم يصدّق..
إن تاريخ النازي في (بولندا) بالذات مليء بالمذابح.. ومليء بموضوع دفن

القتلى حيث قتلوا..
لكن السماع عن الوحشية يختلف عن رؤيتها..
يختلف عن الجلوس على بعد متر من (الدينامو) الذي ولد كل هذه الوحشية.. وأمر بها..
في مقعده الجانبي يجلس الجنرال مسترخيًا مستقيم الظهر، وقد أنزل منظار الوقاية على عينيه...هادئ الضمير كطفل غسل يديه بعد التهام قطعة حلوى..
ولم يجرؤ الجندي على اختلاس النظر إليه، بينما محركات الدراجة البخارية تهدر في شوارع (وارسو)... فقد آمن الآن أنّ هناك شيئًا خارقًا للطبيعة في هذا الرجل.. إن هذا الذي فعله يفوق قدرات البشر..

* * *

حين انتهت الضوضاء وانصرف الجنود.. كانت (وارسو) كلها ترتجف خوفًا.. ترتجف غضبًا.. ترتجف ذهولًا..

وكانت هناك حفرة واسعة جوار الميدان الذي جرى فيه (العمل)، تم ردمها الآن على عجل.. لكنّ مغزاها لم يفت على أحد..

وفي توتر وحذر راح القوم يمشون بين الخرائب التي لم تزلٍ ساخنة؛ يركلون الرماد هنا وهناك بحثًا عن شيء ما.. أي شيء..

أحدهم انتابته الحمية فراح يصرخ مرددًا هتافات ضدّ النازي.. وبعض السباب المشين حقًّا..
بينما تلك المرأة ذات المعطف و(الإيشارب) - والتي تراها في كل المذابح الخاصّة بأوربا الشرقية - تولول على صغارها أو زوجها أو أمها أو أبيها..
هنا صاح أحد الرجال يسكتها..
- «صمتًا يا (آنا) فإنني أسمع شيئًا ما..»
وقف أربعة رجال يرهفون السمع.. فقد خيل لهم جميعًا أنهم يسمعون ما هو أشبه ببكاء طفل...
هلوسة جماعية؟ لا.. إن هؤلاء الرجال ليسوا من طراز المهلوسين.. ثم إن

الصوت واضح بالتأكيد.. من أين يجيء؟ من هنا؟ لا.. من هنا.. بل هو هنا حتمًا.
ثمة طفل حي تحت هذا الرماد الساخن!.. لا ندري كيف ولا من؟ المهم أن نخرجه من هنا حالًا قبل أن ينتهي هذا الصوت الوحيد الحي وسط الجحيم...
حاولوا بأظفارهم لكنّ الغبار كان ملتهبًا فلم يقدروا.. أحضر أحدهم رفشًا وراح يزيح به الغبار يمينًا ويسارًا..
أخيرا رأوا يدًا.. يد طفل مغموسة في الغبار.. لكنّها تتحرك.. وبعد دقائق أخرجوا رأسًا أشقر متسخًا يحاول أن يسعل.. وأخيرًا وقف الطفل على قدميه تحمله ثلاثة أذرع.. كان في أسوأ حال

ممكن.. لكنه كان حيًّا.. تلك المعجزة التي لم يفهم أحدهم كيف تمت.

إلا أنهم لم يبالوا بما قد يكون في جسده من كسور ورضوض وشرعوا يتقاذفونه معانقين.. مثل العنقاء التي تولد في اللهيب يخرج هذا الصبي معلنًا لهم أن (بولندا) لم تمت..

كان إسم الصبي هو (إيجور)...

(إيجور تاركوفسكي)...

* * *

- ٢ -

برغم ولعه بالبصاق والسعال.. برغم رائحة الخمر الرخيصة التي تفوح من فيه طيلة الوقت خاصة حين يقهقه بصوت عالٍ.. برغم قلة نظافته والقمل الذي يزحف بين طيات ثيابه في حرية تامة؛ يمكن القول إن العم (أندريه) كان رجلًا طيبًا..

كانت له أسنان نخرة بعضها ولّى إلى الأبد، وبعضها ينتظر.. وكان له شارب كث أشيب يتسلل إلى داخل فمه كلما حاول الكلام، فكان يطرده بطرف لسانه.



وبعد دقائق أخرجوا رأسًا أشقر متسخًا يحاول أن يسعل . .

لابد أنه طرد بعض الشعيرات قبل أن يقول لـ (إيجور):
-«(إيجور).. إن هذا البلد مليء بالفرص.. صدقني..»
كانا واقفين على ظهر السفينة العملاقة التي تمخر عباب الأطلنطي يرمقان المياه السرمدية، وكان (إيجور) الصغير يرتدي معطفًا جلديًا حال لونه واهترأ.. وقد دسّ يديه في جيبه بينما قلنسوة من الفراء تغطي رأسه الأشقر الصغير..
على وجهه علامات الألم وامارات الشقاء.. مريع هو الشقاء الذي يرتسم على وجوه الأطفال الذين رأوا أكثر مما يجب بالنسبة لعمرهم.. حكمة سابقة للأعوام على

جبينهم.. وزهد في الوجود لم يحن وقته بعد..
أما العم (أندريه) فهو عاكف على تجرع سائل كريه من زجاجة صغيرة لا تفارق جيب معطفه..
وعلى ظهر السفينة تتناثر اللاجئون.. رجال ونساء وأطفال أسلم بعضهم عينيه للنعاس.. وبعضهم وقف يرمق البحر بعين ذاهلة شاردة تهاب الغد وتمقت الحاضر.....
طفل يولول فتلقفه أمّه ثديًا ضامرًا جافًا..، ورجل يميل على حاجز السفينة ليفرغ ما بمعدته من لا شيء في الواقع..
- «إن العالم مليء بالأوغاد أيها الصبي..»

يقولها العم وهو يضع كفه المعروقة على كتف الصبي:

- «هيه؟.. أنت لا تصدقني يا بن الشيطان؟.. أنا أعرف ذلك.. إن العم (أندريه) ليس ثملًا أبدًا.. هيه! دعني أشد أذنيك الصغيرتين حتى تحمرا.. حينما يقول لك العم (أندريا) إن العالم يعجّ بالأوغاد فهو يعني ما يقول.. إنهم ـ أولاد الخنازير - يظنون أنني لا أفيق من السُكر.. لكنني أخدعهم جميعًا.. ألاحظ.. وأحلل.. وأفهم كل شيء..»

- «ولكن يا عماه!»

- «ولا كلمة!.. خذ عندك هذا المجنون (هتلر) الذي قرر في لحظة أن يحرق (أوروبا) كلها.. ثم الخنزير (ستالين) الذي

قرر أن يحالفه.. لقد اقتسم الغولان ـ النازي والروسي - (بولندا) العذراء البائسة.. (تفو)!.. إن الخمر الرديئة تجعلني أقيء أحيانًا.. لكنّ أفعال البشر تجعلني أقيء دائمًا!.. ولكن سترى يا (إيجور).. سترى.....»

ويهز إصبعه في وجه الصبي في إنذار:

ـ «سترى أن (هتلر) لا يؤمن جانبه.. سرعان ما يستدير ليلتهم (ستالين) بدوره.. وعندئذٍ.. إن شاء الله تأخذني مصيبة إن لم تعم الدماء الأرض.. هيه!.. ويقولون إنني ثمل لا أفقه ما أقول.. بحق العذراء (مريم) لتعمن الدماء الأرض..»

ثم عاد يسعل ويبصق....

ويعود الصبي بعينيه إلى البحر...

* * *

اسمه (إيجور تاركوفسكي) بن (ميخائيل) المدرس بالمدرسة الإعدادية.. سنه اليوم - عام ١٩٤٢ - خمس سنوات..

بالطبع هو لا يعرف تفاصيل ما حدث، وإن كون صورة مبهمة عامّة عنه من ذكرياته، وثرثرة العم، وما قرأه بعد الحرب بأعوام...

فقط يعرف أنه كان طفلًا كأي طفل آخر.. يلهو ويستمتع بالتخريب وتهشيم الزهريات ودس الأجسام المعدنية في ثقوب الكهرباء.. وفي المساء كانت هناك امرأة لطيفة ما ـ هي أمّه حتمًا - تجلس على

طرف الفراش (لتدندن) له أغنيات، تتحدّث عن الأرانب والغزلان والدببة سيئة الخلق..

وفي ذلك اليوم كانت أمّه تصرخ وتولول.. وراحت تردد دون انقطاع:

- «الدبابات!.. لقد حاصروا الحيّ..!»

لم يفهم كنه كلامها.. لكنه أطل برأسه الصغير من نافذة الطابق السادس ليرى الدبابات الجميلة تقف متراصة كالدمى بعرض الشارع.. صاح فرحًا.. ولم يفهم قط ما الذي يثير الرعب في مشهد بهذا السحر..

لكن الأم حملته على كتفها، وبيد عصبية جذبت أخته (ماريا) ذات السنوات العشر من يدها.. ثم عادت لتضع المكواة والساعة

في كيس قماشي حملته بيدها الأخرى.. وهرعت تقتاد الطفلين فوق درجات السلم نازلين إلى الشارع..

وكان هناك مكبر صوت يردد بلغة بولندية رديئة:

- «إخلاء.. لا نريد أن..... الشارع..»

وبرغمها فقدت الأم التحكم في غازات بطنها.. وبعد ثانية أخرى أسندت رأسها إلى الحائط وأفرغت طعام الإفطار.. ثم هرعت إلى الشارع...

ورأى (إيجور) آخرين.. رجالًا ونساء يركضون في هلع.. وكان هناك رجل ذو شارب كث يحمل بندقية.. فرأى جارهم الأصلع (ليبسكي) يوقفه في عصبية صائحًا:

- «تخلص من هذه! إنك ستجلب علينا الدمار!»

يذكر (إيجور) الأزقة الخلفيّة وصفائح القمامة التي راحت الأم تبعثرها وهي تنشج وتولول....

ويذكر الجنود الذين وقفوا جوار دباباتهم شاهري أسلحتهم باتجاه الفارين عبر الأزقة..

من ثم صاح القوم في هلع:

- «هذه الجهة مغلقة!»

هنا بدأ الرعب يزحف إلى روح (إيجور).. بدأ يئن ثم انفجر في بكاء هائج متقطع وهو على كتف أمّه...

صاحت الأم وهي تعود أدراجها:

- «اخرس!.. إنك تثير أعصابي.. اخرس!»

لكنه ازداد بكاء على بكاء..

وهنا بدأ دوى المدافع.. الأرض ترتج وترتج معها قلوب القوم.. ورسم أكثرهم علامات الصليب.. نظرات حائرة شقية ترمق الأفق في توتر... و...

* * *

لماذا لم ينس قط ما حدث؟

من البديهي أن تكون العبارة التالية هي: ساد الظلام.. ولم أعد أعرف أين أنا ولا ما حدث حتى أخرجوني..

هنا مع (إيجور) يختلف الوضع..

فهو يذكر جيدًا كل قطعة قرميد هوت فوقه، ويذكر أين هوت.. والرضوض التي أحدثتها في جسده الصغير..، بل هو يذكر مصير كل ذرة غبار تطايرت من ذلك الجدار الذي انهار فوقه هو وأمه وأخته..

يذكر كيف ازدادت كثافة الصورة ببطء، ليصير السواد مطلقًا من حوله، وعندئذٍ انسحب آخر جزيء من الأكسجين.. وأحس أنه يختنق، وأنه عاجز عن الحركة تمامًا..

هل فقد الوعي؟ حتمًا حدث هذا.. لكنّ ذاكرته عن الحفرة والردم تشكل شريطًا واحدًا متصلًا خاليًا من (المونتاج)..، وهو يذكر جيدًا هدير. جنازير الدبابات على بعد أمتار من موضعه..

لماذا لم يمت؟ لا يدري.. إن التفسير الوحيد الذي وجده هو أن (أجله لم يحن بعد).. وهذا حق.. لكنّ أجل الآخرين كان محددًا.. الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم السبت ٢٠ أبريل عام ١٩٤٢.. ولم يتأخر الأجل ولم يتقدم..

أمّا هو.. فقد وجده الرجال وعادوا به حيًا يرزق...

* * *

عاش (إيجور) أيامًا عند عمّه (أندريه) الذي كان يقيم عند أطراف العاصمة المنكوبة..

كان الرجل عجوزًا غريب الأطوار، وكان من هؤلاء الشيوخ الذين أورثتهم الشيخوخة عصبية وسوء خلق.. فكان كثير السباب والشجار، ولم يكن يثير الشفقة بحال.. لكنه كان طيب القلب حقًّا.

ومنه تعلم (إيجور) درسه الأول في الحياة.. أن الأخيار ليسوا بالضرورة جميلي الخلقة يرتدون ثيابًا بيضاء وهالة الملائكة فوق رءوسهم.. وليس الأشرار دائمًا وحوشًا ذات أنياب يسيل الزبد من أشداقها ولا تتورع عن ركل القطط..

* * *

يذكر (إيجور) تلك الأيام الكابوسية.. وجحافل النازيين تمشي في الطرقات بخطوة الأوز، حين صار للقمر نفسه شكل الصليب المعقوف.. وحين صار صوت طلقات الرصاص في الشوارع البعيدة أمرًا مألوفًا.

وكان العم (أندريه) يزداد توترًا وعصبية، وما انفك يردد في كل يوم أن:

- «هؤلاء الخنازير القادمون من (الراين) سيذبحوننا.. (هيك)!.. سترى يا بن أخي.. سيصنعون ذخيرتهم من كرات عيوننا!»

ولهذا كان الهروب من (وارسو)..

من (بولندا) كلها...

- «إن في الغرب عالمًا جديدًا يا (إيجور).. عالمًا حرًا بعيدًا عن هذه

المذابح.. وإن شاء الله تأخذني داهية إن لم يرحب بأمثالنا..»

وعلى ظهر السفينة المتجهة إلى الولايات المتحدة عبر الأطلنطى وقف (إيجور) ذو السنوات الخمس مع العم السكير، يودع مسقط رأسه الذي أخذه الآريون..

* * *

أيام كئيبة مرّت على ظهر السفينة التي تزاحم المهاجرون المجر والبولنديون فوقها في العراء..

كانوا يصطرعون على كسرة خبز أو جرعة ماء أو على فتاة يانعة لم يقتلها الجوع بعد.. دائمًا يصطرعون..

وكانت الطائرات (الميسير - شميت) تحلّق فوق رءوسهم في بداية الرحلة، فكان الرجال يهللون ويطلقون عبارات السباب.. لكنّ الطائرات لم تحاول مهاجمتهم لأن أمريكا لم تكن طرفًا في الحرب بعد، ولم يكن من مصلحة أحد أن يدعوها للدخول..

فيما بعد قلّت (الميسير ـ شميت).. وبدأت طائرات (سبيتفاير) و(ب ـ ١٧) تظهر في السماء..

كانت هذه هي النوارس التي تعلن دنوهم من الأرض.. من الساحل الأمريكي.

❋ ❋ ❋

ومن بعيد - وسط الضباب وبين أسراب النوارس المرفرفة المتصايحة - بدا لعيني (إيجور) ذلك العملاق الهائل الذي يحمل الشعلة.. وعلى شفتي العملاق تلاعبت ابتسامة غامضة متعادلة حالمة لا تفسير لها.. مثل الابتسامة التي سيراها على شفتي (الموناليزا) بعد أعوام...

- «هذه هي الآنسة (حرية).. مس (ليبرتي) يا (إيجور).. وعلى قاعدتها كلمات تقول: إلى أيها المتعبون.. فأنا أحمل مشعل الحرية.. إنها تحرس الباب إلى العالم الجديد»

قالها العم وأنامله تتوتر على كتفي صغيره..

أما (إيجور) فقد شعر بالدموع تنساب على خديه، لا تأثرًا ولكن خوفًا من هذا الصنم العملاق الذي يوشك على الحركة..

(ملحوظة من د. (رفعت): فيما بعد قدم (يوسف شاهين) مشهدًا لا يُنسى في نهاية فيلم (إسكندرية ليه) حين دنت الكاميرا من وجه تمثال الحرية، لنجد أنه وجه غانية ملطخ بالأصباغ.. تغمز بعينها وتضحك ضحكة ماجنة..، يبدو أن (إيجور) كان على حق حين توقع - بحساسية الأطفال - أن أمريكا لن تكون هي الجنّة التي يتوقعها العم..).

والآن ها هو ذا (إيجور) المهاجر البولندي الصغير يدخل إلى الولايات المتحدة.. ليبدأ حياة جديدة مبهمة.

وبذا ينتهي الجزء الأول من قصتنا..

❋ ❋ ❋

الجزء الثاني

(بالتيمور) - ١٩٤٧

- ٣ -

الآن تعالوا معي لنرى هؤلاء الصبية الجالسين في الصف يتابعون الدرس، أو يتظاهرون بذلك..

دعنا لا نتوقف كثيرًا عند هذين الشيطانين الصغيرين المشاغبين، وهذه الطفلة الشقراء بارعة الجمال، ولاعند الصغير الذي يبدو من أصل شرقي ببشرته الصفراء وعينية الضيقتين..

أريد منك أن ترى هذا الصبي.. دع الكاميرا تتوقف عنده قليلًا وتستعرض ملامحه.. إنّه هو (إيجور).. نعم...

لقد كبر.. إنّه في العاشرة من عمره الآن.. وهو يبدو في حال طيبة.. وثيابه كذلك مهندمة نظيفة.. لكنّ نظرة النضج السابق للأوان لم تبرح عينيه..

وكما قال أحد الأصدقاء لأبيه يومًا:

- «إن هذا الفتى لم يعش طفولة معذبة.. يبدو لي أنه لم يعش طفولة أصلًا!»

صبرًا.. هل قلت (أبيه)؟ نعم.. ألم أخبركم بعد؟ إن (إيجور) ابن بالتبني لزوجين أمريكيين تقدما لمشروع (تبني أطفال المهاجرين الشرقيين)، وذلك بالطبع بعد أن مات العم (أندريه) في مصحة لأمراض الصدر.. فقد كان البائس يعاني مرض الدرن.. وعلى كل حال لو لم يمت بالدرن لمات من تليف الكبد الكحولي.. ولو لم

يمت بهذا لمات بالتيفوس من جراء القمل الذي يغمر جسده.. لقد كان العم العجوز مستودع أمراض.. وإنها لمعجزة أن يظل حيًا خمسة وخمسين عامًا كاملًا.

تقول المعلمة وهي تقف جوار لوح الكتابة:

- «.. وهكذا يا أطفال خضنا الحرب من أجل العالم الحر.. ولولاها لما كنا هنا الآن..»

ثم نظرت نظرة حازمة ثاقبة إلى الأطفال، وإن رسمت على شفتيها ابتسامة صناعية لطيفة:

- «والآن.. من يحبّ الحديث عن الحرب؟»

واتجهت عينا الصقر إلى إصبع صغير مرتجف لطفلة:

- «(كارولين).. حدثينا يا عزيزتي عن ذكرياتك»

نهضت الطفلة ذات الضفيرة الذهبية.. وبصوت مبحوح خجول قالت في تردد:

- «(هتلر) شرير.. بابا قال لي: إن (إيزنهاور) أنقذ حياتنا، وكل لعبنا التي كان الأطفال الألمان سيأخذونها ..»

- «برافو (كارولين)!.. والان من يحدثنا بعدها بنفس الفصاحة؟ آه! (إيجور).. قف يا عزيزي وحدثنا».

هنا حدث شيء ما...

تردد صوتها في ذهن (إيجور).. كأنها تتحدّث في طرقات قصر فارغ من الأثاث

والسكان.. الصدى يجلجل في المكان وهي تقول في تهكم:

«هيا أيها البولندي القذر.. ماذا تعرف أنت عن أي شيء لتحدثنا عنه؟!»

منذ ثوان سمعها تقول بينما (كارولين) تتحدّث:

«يا للبلهاء الصغيرة!.. تبًّا لسخف الأطفال.. أية مهنة بائسة تلك التي اخترتها لأصغي لهذا الهراء؟»

كانت تنظر نحوه وعلى وجهها أعتى أمارات اللطف.. وقالت وهي تمد يديها نحوه:

- «(إيجور).. لا تخجل يا ملاكي..»

نهض ببطء وعيناه لا تفارقان عينيها..

كان يسمعها تردد:

«ما أغرب أنفه!.. رباه!.. كيف يحمل المرء أنفًا كهذا ويظل له الحق في الحياة؟!»

حين وقف (إيجور) كانت أذناه قد احمرتا كالطماطم من فرط الإهانات..

قال في عصبية بلغة إنجليزية جيدة:

- «أنا لست قذرا! وأنفي هو أنفي وحدي!»

بدا الذهول على المرأة، فلو كانت قد داست سلكًا كهربيًا عالى الفولت لما ارتسم هذا التعبير على سحنتها.

وتصايح الأطفال.. بعضهم ضحك في عصبية، وبعضهم راح يكيل التوبيخ لـ (إيجور)..

ثوان ثقيلة مضت.. ثم هتفت المعلمة بصوت مرتجف قليلًا:

- «سيكون عليك أن تبقى ساعتين بعد الدراسة.. وأن تكتب (سوف احترم المعلمة) مائتي مرة..»

تعالت الهمسات بين الأطفال، ولم يكن (إيجور) بحاجة لسماعها فهو يعرف ما سيقال بالحرف:

- «إنّه مخبول تمامًا»
- «كل هؤلاء الأوربيين معاتيه..»
- «لم تطلب منه أن يحضر أبويه.. فهو يتيم تمامًا بلا عائلة».
- «يقولون: إن (هتلر) ذبح أسرته..»
- «يا حرام.!.. لهذا جُن..»

سمع كل هذه الأحاديث بعقله وبأذنه لكنه لم يجد ما يُقال.. لهذا جلس شاعرًا بالحنق.. وتمنى لو أنّ أهل كل هؤلاء الصبية هلكوا تحت جنازير الدبابات، ليعرف الصبية في أي شيء يمزحون..

❋ ❋ ❋

لم تكن هذه هي المرّة الأولى...

منذ أن جاء (إيجور) إلى أمريكا وهو يعرف أنه يملك القدرة على دخول عقول الآخرين..

لم يسأل نفسه قط عن سر حصوله على هذه الموهبة، بل هو لم يحسبها موهبة على الإطلاق.. حتى إنّه - بشكل ما - كان

يحسب الناس جميعًا قادرين على هذا.. ولم يحاول أن يسأل.. لكنّ هذه الموهبة لم تكن اختيارية ولم تكن طوع بنانه، أحيانًا كان يجد أفكار من أمامه تلمع ساطعة واضحة في عقله هو.. وأحيانًا كان يعجز تمامًا عن معرفة ما يفكر فيه الآخرون..

وحين كانت هذه اللحظة الثمينة تأتي كان يسمع الأفكار في مكان ما من عقله بصوت صاحبها، وأحيانًا كان يرى خيالات يدرك جيدًا أنها ليست خيالاته هو..

كان هذا يثير حيرة الآخرين حين يفاجئهم بما يفكرون فيه قبل أن يقولوه..

وتدريجيًا أدرك (إيجور) أنّ هذا هو سرّه الخاص، وأن عليه ألا يصارح به أحدًا، وأطلق عليه اسم (الاختراق) ومعناه القدرة

على اختراق أذهان الآخرين.. بالطبع ما كان لصبي العشر سنوات أن يعلم أنّ هناك اسمًا لهذه الظاهرة هو: (الإدراك الفائق للحس) أو (E.S.P)[1]، وإن كانت موهبته هو بالذات تختلط بنوع آخر من الظواهر هو ظاهرة (التخاطر) أو (التيليباثي).. فهو قادر على أن يصل بأفكاره إلى الآخرين كما هو قادر على التلصص على أفكارهم...

المشكلة كما قلنا: إن هذا لم يكن خاضعًا لإرادته بحال، ولم تكن هناك وسيلة مضمونة للتحكم فيما يحدث..

كان يتجه بعينيه إلى الشخص موضع الفحص.. يركز عينيه على مؤخرة رأسه.. عندئذٍ إما أن يحدث (الشيء) وتبدأ

الخواطر تتدفق إلى رأسه هو.. وإما لا يحدث شيء على الإطلاق.. عندئذٍ كان يُسمّى الاختراق (إظلامًا)..

وبرغم حداثة سنه؛ بدأ الصبي يعرف عن عالمنا ما يعرفه الحكماء في سن السبعين... إن عاشوا...

إن الناس أشرار أنانيون جشعون إلى حد لا يوصف.. ولا يكفون عن الكذب والنفاق والمكابرة.. وكلهم يكذب بجرأة ووقاحة لا تضاهى...

وزادت هذه الخبرة القاسية من عزلة الصبي وانطوائه وميله إلى الاستماع لا الكلام.. بوجهه الصارم الكئيب الذي هو أقرب إلى وجه عجوز عرف ورأى كل شيء..

* * *

ويعود (إيجور) إلى داره حاملًا حزام كتبه متدليًا حتى يكاد يلمس الأرض، ويلقاه كلبه العملاق من طراز (سان برنار) وهو يتواثب ويصدر أصواتًا مختلطة.. فيربت الصبي على ظهره الدافئ..

فقط مع هذا الكلب عرف (إيجور) معنى صدق العاطفة.. فالكلب لا يفكر بكلمات.. لكنّ (إيجور) كان ينجح أحيانًا في اختراقه، عندئذٍ كان يشعر بفيض من العواطف الصادقة: اللهفة - الفرح - الخوف - الاستمتاع.

وحين يخاف الكلب لم يكن يتظاهر بالشجاعة، وحين يفرح لم يكن يداري فرحته في كبرياء.. بل كان يتواثب في كل صوب مبصبصًا بذيله..

إن الحيوانات لا تظهر أبدًا عكس ما تبطن، وهذه نقطة في صالحها دون شك...

يدخل المطبخ ليجد أمه - بالتبني - عاكفة على تقطيع شيء ما بالسكين في إناء على الموقد، وهي - بالمناسبة - حسناء في الخامسة والثلاثين من العمر لكنّها غير ذات رحم.. ولهذا كان التبنى هو الحل الوحيد؛ كي تجد طفلًا تقول له:

- «(إيجور).. تأخرت كثيرًا اليوم.. هيه! ألم أقل لك ألا تدع الكلب يدخل معك إلى المطبخ؟ هلا غسلت يديك أولًا قبل أن تفتح

الثلاجة؟ تبدو لي كأنما قادم أنت من منجم فحم من فورك.. من أين تأتي بهذه القذارة؟!».

لم يجب.. كان قد كف عن الإجابة منذ زمن.. دخل إلى الحمام فغسل يديه، ثم دخل إلى حجرته فنزع ثيابه وبدلها.. ونزل إلى الحديقة ليجد أباه - بالتبني - عاكفًا على إصلاح سيارة الأسرة وقد تلوث وجهه ويداه بالشحم..

ـ «مرحبًا (إيجور).. سمعت أمك توبخك..»

ـ «هي دائمًا تفعل..»

- «لا تقل هذا ثانية.. أنت تعرف أنها توبخك: لأنهّا تحبك».

وفي أغوار ذهنه سمع (إيجور) صوت أبيه:

«يا للأحمق!.. ألا يكفيك ما أنفقه على طعامك وملبسك وأنت لست من صلبي؟.. لولانا لكنت تتسول الآن في حواري (وارسو)..، لولا هذه الحمقاء التي شعرت بحاجة ملحة للأمومة.. ولولا المعونة التي تقدمها الحكومة لنا؛ لفضلت أن أتركك لتلتهمك الفئران..!»

لم يكن هذا أسوأ شيء...

أحيانا كان يسمع صوت الأم تقول في ذهنها وهي تداعبه في لطف:

«يا لغرابة مظهره وطباعه!.. حيوان نادر.. هذا هو كل شيء.. إن هذا الصبي حيوان نادر جدير بالمشاهدة..

أنا لا أحبه أبدًا ولن أستطيع.. لكنني أقوم بواجبي نحوه تمامًا ولا أحد ينكر هذا، بل إنني أقدم له أعظم خدمة في التاريخ.. أقدم له أبوين أمريكيين.. فكيف يتذمر بعد هذا؟!»

أمّا عن رأي الزوجين في بعضهما، فحدث ولا حرج.. فالزوج يؤمن ببلاهة زوجته.. والزوجة تثق بشراسة زوجها وغبائه..

ولا يمنع هذا من خروجهما إلى حفلات (الكوكتيل) والمناسبات الاجتماعية حيث يقترح الزوج أنخابًا مبتكرة، ويتحدث عن أظرف شيء حدث له حين ذهب ليصطاد السمك في العام الماضي..

كان الصبي يتذكر ماضيًا مفعمًا بالحنان.. صوت الأم الهامس واللغة البولندية العذبة.. شوارع المدينة المرصوفة بالحجارة ودقات أجراس كنيسة بعيدة..

❋ ❋ ❋

بعد كل هذا يأتي دور (بيل هاكمان).. وياله من دور..!

❋ ❋ ❋

- ٤ -

هناك رعاع في كل مكان، وهناك أوغاد.. وقد كان (بيل) هذا.....أ..... معذرة.. فأنا لا أعرف مُفرد (رعاع).. المهم أنه كان واحدًا من هؤلاء..

كان يكبره بعامين.. قوي البنيان.. شرسًا.. له تلك الشخصية الكاسحة المميزة للأشرار.. لماذا يكون الشر إيجابيًا دائمًا في حين يندر الخير الإيجابي؟!

شخص كهذا ـ برغم حداثة سنه ـ يغدو مركز تبلور لمن حوله.. أربعة أوغاد آخرين أضعف شخصيّة لكنّ أقرب إلى دناءة النفس يحيطونه دائمًا..

لهذه المجموعة هدف واحد في الحياة: جعل الأمور سيئة بالنسبة للضعاف.. التحرش بكل من يريد أن يترك وشأنه.. السخرية وهدم كل ما هو جميل وديع في الحياة..

كان كل من يرى (بيل) من الكبار يتوقع له مستقبلًا باهرًا كزعيم عصابة أو سفاح..

وكان (بيل) - حتمًا - يملك كل المؤهلات لذلك.. فهو أسوأ طلاب الصف، وأقلهم نيلًا للمديح والدرجات.. ولهذا جعل شغله الشاغل مضايقة من هم أكثر تفوقًا أو أدبًا أو أكثر أناقة..

لقد كان أبوه فقيرًا مشاغبًا سكيرًا، ولهذا كان (بيل) يشعر بالحساسية الربوية تجاه

الأثرياء والمهذبين وكل من يبدو عليه أنه يعيش حياة أسرية هادئة..

يجذب ضفيرة (ماري) الجميلة المتأنقة.. ويمزق ألبوم (هنري) الذي يعكس سعادة عائلية.. ويركل (بول) لأنّه متفوق في الصف...

يفعل كل هذا ويضحك.. ويشعر بسعادة غامرة...

ومع هذا النوع من الشخصيات (السايكوباثية) - عدوة المجتمعات ـ لم تكن أية أساليب تربوية تجدى.. سواء اللين أو العنف.. كانت هناك طريقة واحدة هي ربط (بيل) وأمثاله إلى صاري سفينة في المحيط الهادي ثم نسف هذه السفينة بقنبلة نوويّة..

لكن أحدًا لم يجرؤ ـ طبعًا ـ على فعل ذلك..
والآن يا رفاق.. لكم أن تراهنوا على أن (بيل) وجد في (إيجور) الفريسة التي لم يحلم بها طيلة حياته..
إن (إيجور) مهذب متحفظ ضعيف متفوق في دراسته، ثم هو أجنبي يتيم الأبوين.. كل هذه أخطاء لا تغتفر ويجب أن يدفع ثمنها...
لن أتحدث هنا عن رمي الكتب على الأرض، ولا وضع السحالي في قذاله، ولا سكب الحبر على سرواله.. بل أتحدث عن تجربة البيت المسكون..
إن لهذا قصة طويلة دعوني أقصها عليكم الآن..

* * *

كانت البداية هي تحد.....

هو ذا (إيجور) عائد إلى داره بعد ساعات الدراسة، حين وجد صف الأوغاد إياهم يسد عليه الطريق..

فكر في الجري عائدًا.. لكنه لم يرد أن يسرهم بجعلهم يفهمون أنهم أثاروا هلعه...

لذا واصل السير حتى غدا على بعد بضعة سنتيمترات من (بيل) الذي وضع يديه في خاصرته، وراح يبتسم في جشع وخبث...

لم يكن من العسير على (إيجور) تخيل أنه سيقف يومًا ما بعد عشرين سنة يبتسم

تلك الابتسامة وهو يسطو بالسلاح على بنك..

- «هيه.. يا أصفر!»

و(أصفر) هنا كناية عن الجبن.. لا عن اللون..

رفع (إيجور) عينين غاضبتين صامتتين نحو خصمه.. وحافظ على ثباته...

لكن يد (بيل) كانت أطول من لسانه.. ووجد (إيجور) نفسه يجذب من ياقة قميصه إلى أعلى ليرتفع عن الأرض بضعة سنتيمترات..

- «هيه يا أصفر.. هل تحاول أن تلعبها كالرجال؟».

شرع (إيجور) يحاول التملص.. وراح يسدّد بعض لكمات خرقاء لم تصل واحدة

منها إلى وجه غريمه..
وراح الرعاع يقهقهون ساخرين......

*   *   *

(راتا تا تا بوم!.. راتا تا تا تا بوم!).

الجنرال النازي ينظر في ساعته بفتور، وهو يرمق الدخان الأسود المتصاعد من المباني.. (هذه الجهة مغلقة!)..

(اخرس!.. إنك تثير أعصابي.. اخرس!).. (إخلاء.. إخلاء!)

(راتا تا تا تا! راتا تا تا تا!)

* * *

وأدناه (بيل) من وجهه ليتلامس الأنفان.. وبلهجة رصينة حاول أن يجعلها مرعبة غمغم:



ووجد (إيجور) نفسه يُجذب من ياقة قميصه إلى أعلى
ليرتفع عن الأرض بضعة سنتيمترات ..

- «ليكن معلومًا لديك أنني أمقت الملونين والبولنديين.. وكل أولاد الـ (.....)»

وهنا شعر (إيجور) بأنه يخترق ذهن الصبى.. أفكاره تدوي في ذهنه بوضوح غير عادي:

«يجب أن أحطمه... يجب.. لا يبدو سهل الكسر... لكنّ كرامتي تتوقف على تحطيمه.. يجب أن أجعله يولول كالفتيات».

شعر (إيجور) بامتنان لهذا الاختراق الأخير.. فقد أفاده كثيرًا، وعلم منه أن الصبي يهابه كما يهابه هو.. ليس (بيل) واثقًا من نفسه إلى الحد الذي يحاول أن يبدو به، لهذا استجميع قواه.. وكل ذرة في

كيانه.. ووجه لكمة قوية مرعبة إلى محجر عين (بيل)..

«آي!.. لقد آلمتني كثيرًا أيها الخنزير؟»

لكنّ (بيل) لم يصرخ.. ألقاه أرضًا وتحسس عينه في تؤدة.. إن (بيل) يملك قدرة غير عادية على ضبط النفس دون شك برغم كل الصراخ الذي يسمعه (إيجور) في ذهنه...

أخيرًا استعاد (بيل) روعه.. فأخذ نفسًا عميقًا.. ثم نظر إلى الذئاب المحيطين به وهتف:

- «يا شباب.. قد جرؤ على ضربي.. تصوروا هذا! لقد جرؤ البولندي على ضرب (بيل هاكمان)!»

- «هوووه! فلنحرقه حرقًا!»

- «سنطعمه للصراصير!»
رفع (بيل) يده في وقار وهو يتحسس عينه:
- «لا.. لا.. إن البولندي ولد شجاع.. إنّه يملك أحشاء (كناية عن الشجاعة).. لهذا أرى أن نجربه.. معًا نأخذه إلى بيت آل (كيلي)..!»
- «مرحى ى ى ى!»
- «هوووووه!»
وهكذا يجد (إيجور) البائس نفسه مجرورا من ثيابه جرًا إلى بيت آل (كيلي).. البيت المهجور الذي يهابه الجميع في الجوار ويتحدثون عنه في تحفظ..
كان هناك بعض الكبار يمرون في الشارع ويرمقون ما يحدث.. لكنّ أحدهم لم

يتدخل.. فقط كانوا يهزون رءوسهم في ضيق مغمغمين: (يا لشباب هذه الأيام).. أو.. (جيل ملعون)..

الواقع أن (إيجور) لم يكن ليطلب عونهم أبدًا، فكرامته تأبى الاستعانة بسلطة خارجية مهما كانت.. ولهذا لم يشك أفعال (بيل) لمدير المدرسة أو لأبويه قط.. لو فعل هذا لكف (بيل) عن مضايقته، لكنّ (إيجور) لن يعتبر نفسه منتصرًا.. إنها مشكلته وهو وحده المسئول عن حلها..

* * *

ويلوح البيت المشئوم لعيني (إيجور)..

الحديقة غير المعتنى بها منذ أعوام، والبوابة المغلقة بجنزير وقفل ثقيل ضخم..
ثم البيت نفسه الجاثم ككابوس عتيق وسط هذه الحديقة..
كانت النوافذ والأبواب موصدة بإحكام، وعلامات القدم تلوح على كل شيء.. فمنذ أن فر آخر ساكن للبيت وهو يصرخ في الساعة الثانية صباحًا؛ لم يعد أحد يجرؤ على استئجار البيت، وظل اسم الزوجين (كيلي) اللذين قتلا في هذا المكان منذ عشرين عامًا علامة على البيت..
(البيت يقترب أكثر فأكثر...)
كان هذا هو بائع اللبن الذي لاحظ أنّ هناك عددًا أكثر من اللازم من زجاجات

اللبن على الباب، وهذا معناه أن الزوجين سافرا أو.........

(إن الليل يدنو سريعًا في هذا الوقت من العام..)..

الجيران غير مصدقين.. فالحقيقة التي يعرفها الجميع هي أن (هوارد كيلي) الزوج يعاني من التواء في مفصل الكاحل، ومن المستحيل أن يغادر الدار لمدّة أسبوعين أو أكثر..، ويتم إبلاغ شرطي الحيّ (جوناثان) الذي يجد من واجبه أن يحاول رفع نافذة المطبخ.. ثم يثب من خلالها إلى داخل الدار...

فماذا رأى وماذا وجد؟

(هلمّ يا أصفر.. إن البيت ينتظرك)..

قال المحققون: إن أداة القتل كانت فأسًا.. وإن الجاني قد تسلل إلى البيت من الباب الخلفي، ووجدته الزوجة أمامها في المطبخ.. ثم جاء دور الزوج الذي كان جالسًا جوار (الجرامافون) يصغي إلى أسطوانة صاخبة أو أي شيء آخر يحدث ضوضاء لا يسمع الصراخ معها..

إن الجاني لم يسرق شيئًا.. فهو إذن يندرج تحت قائمة هواة القتل.. أو أن سبب الجريمة كان شخصيًا.

المهم أن الملف قد أغلق إلى الأبد.. لكنّ البيت لم يغلق ملف القضية بعد...

(هل تستطيع فتح الباب يا (بيل)؟)

ومن يومها يرى الجميع أضواء غامضة تتحرك ليلًا.. ويسمعون أصواتًا

وضحكات، وقد نجح البيت في طرد ثلاث أسر ظننت أنها لا تعبأ بكل هذا الهراء..
المجانين فقط يجسرون على دخول البيت.. المجانين والبولنديون المغلوبون على أمرهم...
والان هو ذا (بيل) يعالج القفل بمطواته، ثم يزيح الجنزير.. واضح أنه فعلها مرارًا..
ويدخل الجميع إلى الحديقة التي بدأ ضوء الغروب يغلفها باللون الأزرق الشاحب.. إنها مرعبة لكنّها لم تصر رهيبة بعد.. ستكون كذلك بعد ساعتين..، إن الأشخاص الحساسين مرهفي الحس يخافون أكثر من سواهم.. هذا معروف...
و (إيجور) حساس مرهف الحس..

لهذا تنتظره ساعات مروعة....

❋ ❋ ❋

- ٥ -

قال (بيل) وهو يشعل لفافة تبغ [إن الصبي في الثانية عشرة من عمره لكنه كما قلنا آنفًا مشروع سفاح]:

- «إليك قواعد اللعبة يا أصفر.. أنت وحدك داخل البيت حتى الصباح.. وبعدها نجيء لنحررك ونعترف بأن لك أحشاء...»

في تحد غمغم (إيجور) وهو يصلح من شأن ثيابه:

- «لن أقبل قواعدك.. وسأعود إلى داري..»

نفث (بيل) الدخان في وجهه، وناول اللفافة إلى ذئب من الواقفين حوله ليكملها.. ثم قال في سخرية:

- «ليكن يا أصفر.. كنت دومًا أقولها: إن البولنديين جبناء كفئران.. ستعود لدارك سالمًا.. لكنّ الناحية كلها ستعرف مدى جبنك غدًا..»

- «سأشكوكم لمدير المدرسة..»

- «ها..!» - قالها في ثقة - «لن تستطيع لأنك ستكون وقتها كالفتيات اللواتي ما إن يشد أحد ضفائرهن حتى يهرعن مولولات إلى أمهاتهن.. أنت لم تنحدر إلى هذا الدرك بعد.. لابد أن لديك بعض الرجولة تحت هذا المظهر الناعم الخامل..»

كان يقولها وأفكاره تدوي في ذهن (إيجور).

«لن يقبل.. أنا أعرف هذا.. إن هذا أقوى منه».

عندئذٍ - وعندئذٍ فقط - رفع (إيجور) رأسه في شمم.. وحرر ذراعه ممن يمسكونه، وقال:

- «كيف تدخل إلى هذا المكان؟»

* * *

الأمر سهل يا (إيجور).. إذ توجد نافذة خلفيّة واطئة تسرب الصدأ إلى مفاصلها، فلم تعد تنفتح إلا في وجود خمسة رجال أقوياء يتعاونون معًا.. ونحن خمسة..

سنفتح لك النافذة لتدخل منها لكننا سنرحل.. وسيكون عسيرًا بل مستحيلًا عليك أن تعيد فتحها.. لا داعي للقول إن كل الأبواب والنوافذ موصدة بإحكام من الخارج..

«هي هي هي هي!»

والآن خذ هذه الشمعة وعود الثقاب معك، بالطبع لن نترك لك طعامًا أو كتبًا تقرؤها، لأننا لا نتوقع أنه سيكون عندك وقت لأي شيء عدا الصراخ..

* * *

تسلق (إيجور) حاجز النافذة المغبر.. وشعر بخيوط العنكبوت تلف وجهه بشبكة

محكمة، فراح يسعل ويبصق..
ومن خلفه سمع صوت النافذة تنغلق ببطء.. وبصعوبة.. وإصرار لا يتزحزح من عصابة (بيل)..
- «حظًا سعيدًا يا (إيجور)!»
- «لا تنظر وراءك فلربما كان المنظر مرعبًا!»
- «هي هي... لا تستسلم للنوم.. فالنائمون هدف سهل!»
جميع أنواع الضحكات الساخرة: (هي هي) و(ها هاه) و(نيا نياه) و(ياهاااه) و(هو هو هو)...
لكن - وسط الضحكات - يسمع (إيجور) بوضوح أفكار أحدهم تردد في الظلام:

«لقد وقع في الشرك.. عند منتصف الليل يأتي دورنا كما حدث مع ذلك المكسيكي في الشهر الماضي..»

ظلام دامس في الداخل.. لكنّ صبرًا حتى تتعود عيناه.. فليس من الحكمة تبديد الشمعة من الآن..

لابد أنّ هذا موعد العشاء في داره، لابد أن أمّه تتساءل في حنق عن أين ذهب ذلك الوغد الصغير.. تتساءل في حنق لكنّ دون قلق حقيقي..

في الصباح ينال بعض صفعات وركلات..، لكنه لن يبوح بسر ليلته.. لقد وعد عصابة (بيل) بذلك..

كان واثقًا من عدم وجود شيء.. فهو لا يؤمن بالأشباح.. لكنه يهاب خياله الخصب

ً

حقًّا.. هذا الخيال هو عدوه الحقيقي...
وكان هذا الخيال قادرًا الآن على جعله يرى ألف شبح، ويشم ألف جثة متعفنة في أرجاء المكان..
لكنه - حين اعتادت عيناه الرؤية - أدرك حدود الأشياء، وعرف أنه يقف في غرفة كرار تناثر فيها غبار الأعوام ونسيج العناكب.. بمعجزة يتحول هذا الشبح الذي فتح ذراعيه إلى مشجب قائم.. ويتحول هذا الشيء الواقف ينتظره إلى صندوق قديم....
مشى في تؤدة بين
(صرير الأرضية هذا..!)
قطع الأثاث القديم المهملة، وثمّة فأر إنسل مذعورًا من أمامه..، وأخيرًا وصل إلى مقبض الباب فأداره.. المزيد من

الصرير..، يوجد مكان متسع أمامه لكنه لا يدري كنهه.. ربما هو صالة أو...

(هل هذه حقًّا رائحة عطن عادية؟)

غرفة جلوس..، يبدو أن أوان إشعال الشمعة قد حان..، أين الثقاب؟، شريك! شريك! الشمعة تتوهج.. و..

«أخيرًا.. رجل شجاع بعد هذه الأعوام!»

من قال هذا؟!..

ثمة من يفكر ها هنا!.. لقد سمع الصوت واضحًا في ذهنه تمامًا.. ومعنى هذا أنّ هناك من يفكر في الحوار! ولكن من؟ لا يوجد أحد.. ثم.. ما معنى العبارة؟

للمرة الأولى بدأ يشعر بالذعر.. شعر رأسه تصلب.. وتحولت قدماه إلى عودين

من المكرونة المسلوقة..

لكنه واصل التقدم عبر الصالة الواسعة، ثمّة من يقف وراءه! أدار رأسه فلم ير أحدًا..

واصل المسير ببطء.. ببطء.. لماذا لا يقبع ها هنا حتى الصباح وينتهي الأمر؟ لا يدري.. إن فضولًا جامحًا راح يحركه كي يتفقد البيت.. وليته ما فعل..

«إنّه صغير السن.. لكنه شجاع حتمًا..»

التفكير مرّة أخرى! تبًّا! هذه البقعة السوداء على الجدار تشبه ما يمكن أن يحدث لو أنّ هناك من سكب زجاجة حبر.. ولكن.. ألا تفهم معناها؟ إنها بقايا دماء..

بقايا المذبحة التي حدثت هنا منذ عشرين عامًا!

أحس بالقشعريرة.. الخوف الحيواني غير المبرر يتسرب إلى روحه، فراح يردد بالبولندية لنفسه:

«لن تخاف!.. لن تخاف!»

كان هذا حين بدأ صوت (الجرامافون) يتردد..

سمع المقطع الأول من أغنية قديمة تعود إلى عشرينات القرن، فوثب إلى الوراء مترين..

«لن تخاف!.. لن تخاف!»

نعم لن يخاف لأنّه خائف بالفعل..

إن الصوت قادم من القاعة التالية.. كالمسحور يمشي إلى هناك والشمعة

ترتجف في يده فيرسل لهبها ظلالًا جهنمية في كل مكان..

وحين اجتاز الباب رأى جهاز (الجرامافون) العتيق على مكتب أكثر قدمًا، وقاعة هي أقرب إلى غرفة جلوس واسعة بها أثاث كثير مغطى بالملاءات المغبرة.

وكان (الجرامافون) يدور باعثًا أغنية خشنة الصوت.. لقد كانوا على حق!

يوجد شبح في هذا البيت..

لو لم يكن هناك شبح فمن هو هذا الكهل الذي يرتدي (روبًا).. ويجلس على الأريكة يدخن مسترخيًا؟!

* * *

لم يكن شبحًا ضبابيًا ككل الأشباح التي تحترم نفسها، بل كان تجسدًا ماديًا كاملًا.. لكنه لم يكن يترك ظلًا.. وحين تأمله (إيجور) جيدًا أدرك أن رأسه مهشّم.. وأن خصلات شعره قد اختلطت بالدماء المتجلطة..

لكن وجه الشبح كان حكيمًا هادئًا.. وكان يرمق (إيجور) بعينين شفافتين صادقتين..

وتنهد الصبي.. وانتظمت ضربات قلبه..

برغم كل شيء ليس الأمر مرعبًا إلى هذا الحد....

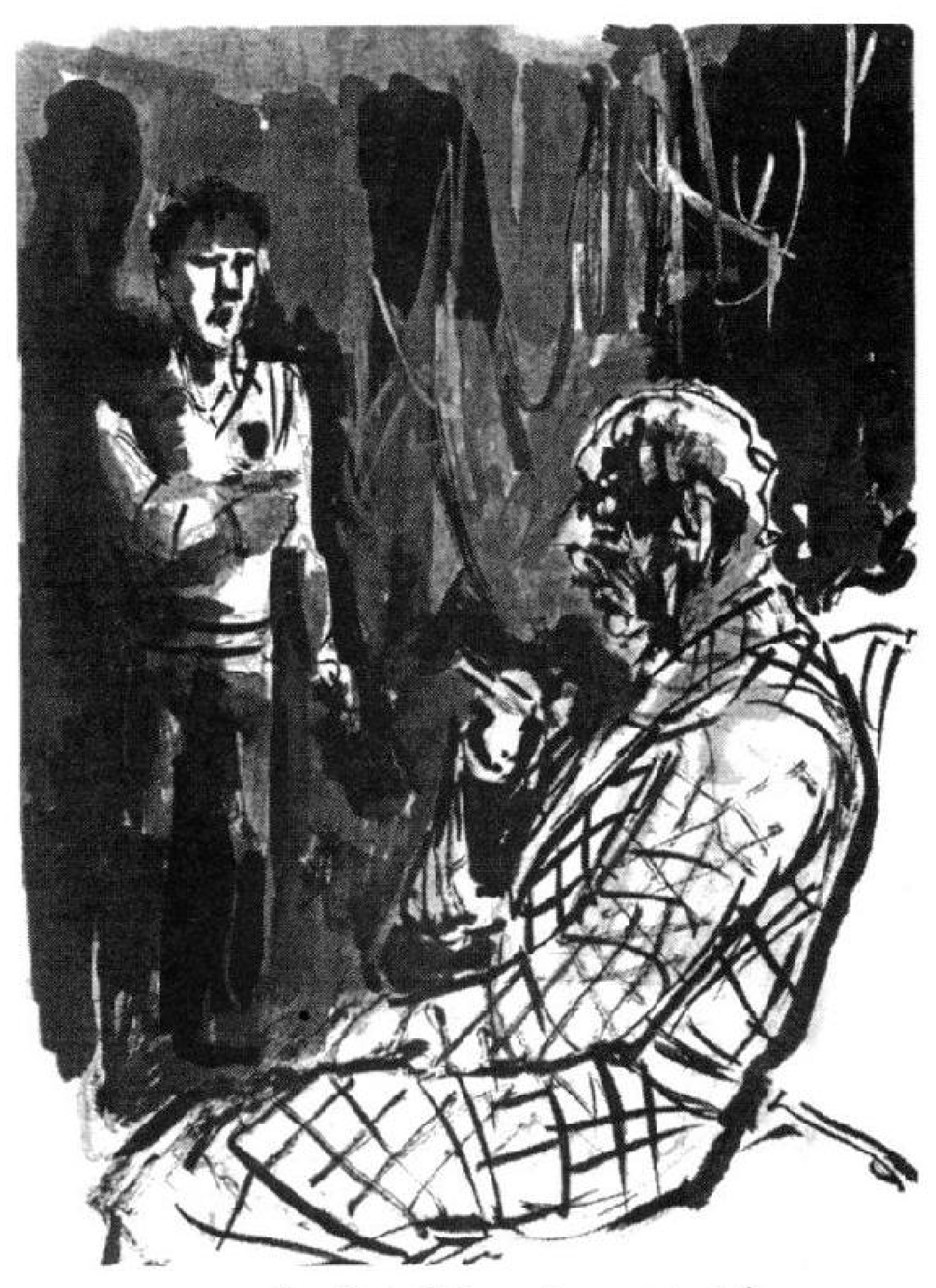
- «تقدم يا (إيجور) ولا تخش شيئًا.. إنني جالس ذات الجلسة أصغي لنفس الأسطوانة التي كنت أصغي لها حين... حين توفاني الله.. ومعذرة على عدم نهوضى لك لأن كاحلي يؤلمني كما تعلم».

صاح (إيجور) في هلع وهو يتقدم برغمه نحو الجالس:

- «هل.. هل تعرفني؟»

- «إن الأشباح تعرف أشياء كثيرة يا بني.. وكذلك أنت.. إن لك موهبة الشفافية.. لهذا يصير التفاهم بيننا ممكنًا.. لا كالآخرين!».

- «هل كان هناك آخرون؟»



وحين تأمله (إيجور) جيدًا أدرك أن رأسه مهشم . .

- «كثيرون منهم.. لكننا نكتفي بإرعابهم حتى لا يزعجونا.. من الصعب أن يُحكم على المرء بالجلوس هكذا إلى يوم الدينونة، ثم يكون عليه أن يتحمل فضول الفضوليين وسفه السفهاء.. تكفي المرء مشكلة واحدة في حياته وبعد مماته.. لكنّ دعني أصارحك إنني أمقت الزحام!»

خطر لـ (إيجور) هنا ما قاله الكثيرون ممن رأوا الأشباح إن الأشباح تبدو حقيقيّة أكثر من اللازم، وليس لها هذا الحضور الطيفي الذي تظهر به في السينما..

وهنا ظهرت الزوجة...

قادمة من المطبخ كما هو واضح.. لأنهّا تلبس (المريولة) وتحمل المغرفة في يدها.. الظريف هنا هو أنها كانت بدون رأس!

الرأس أطاره الفأس يومًا ما منذ عشرين عامًا.

- «هيه يا (هنري)!.. يبدو أن لديك ضيفًا ها هنا..»

- «ضيف غير عادي على العشاء يا (ماري).. نحن لا نرحب عادة بالضيوف لكنّ هذا الصبي يختلف.. إنّه شجاع وشفاف يا (ماري).. إنّه قادر على مساعدتنا..»

هتف (إيجور) في هلع وهو يتراجع خطوة إلى الوراء:

- «أساعدكم؟.. كـ.. كيف؟»

- «بالطبع يا (إيجور).. إن الأشباح مخيفة لكنّها لا تملك سوى القليل جدًّا مما تستطيع فعله.. إنها تكتفي بالظهور وإطلاق

الصيحات.. ربما تحريك الأثاث.. لكنّها عاجزة عن فعل ما هو أكثر..، ونحن في مشكلة يا (إيجور).. لقد قتلنا.. وقتلنا بطريقة بشعة.. يبدو لي أنك تعرف الكثير عن الموت برغم سنوات العشر»

- «أعرف الكثير..»

صادقًا قالها (إيجور).. مطرقًا إلى الأرض قالها.

- «إن قانون الأشباح صارم يا بني.. ما دام قاتلنا حرًا طليقًا وحيًا فإن الراحة الأبدية ليست من حقنا.. وعلينا أن نجول في هذا البيت إلى يوم الدينونة..»

- «إذن.. قاتلكما ما زال حيًّا؟!»

قالت المرأة وخيط من الدماء ينساب من عنقها ليغرق الأرضية، و(أدرك (إيجور)

هنا أنّ هذا يعود إلى تجدد الذكريات الأليمة. في ذاكرتها):

- «بالتأكيد.. إنّه سفاح مخبول يُدعى (جيروم سلفستر) وهو سائق شاحنة يتنقل باستمرار ما بين الولايات... إنّه لم يكف عن ممارسة القتل للتلذذ.. لكنه تعلم شيئًا: تعلم دفن ضحاياه حتى لا تجدهم الشرطة، وهناك أكثر من عشرين مفقودًا ومفقودة هو المسئول عن رحيلهم»

جلس (إيجور) للمرة الأولى على إحدى الأرائك، غير مبال بطبقة الغبار التي تكسوها.. وقال وهو يتأمل لهب الشمعة المتراقص، مفكرًا في حقيقة أنه يجري هذا الحوار الودي مع شبحين لزوجين هلكا منذ عشرين عامًا:

- «ولماذا لم تحاولا الوصول إليه للانتقام.. ما دمتما تعرفانه وتعرفان مكانه؟»

انتهت الأسطوانة فانسابت الزوجة ببطء إلى مكان (الجرامافون) ووضعت واحدة جديدة.. ثم قالت بصوتها الذهني:

- «قلت لك: إن الأشباح تملك القليل مما تفعله.. وقد تعود (سلفستر) على أشباح ضحاياه حتى إنّه لم يعد يعبأ بها.. ولم تعد تخيفه..»

- «وأين هو الآن؟»

- «في (ألاباما).. إنّه في الخمسين من عمره.. لكنه بصحة جيدة، وهو يبحث الآن عن ضحية الفأس القادمة!»

- «وكيف لي أن أساعدكما؟»

- «سنقول لك كيف.....»

قال (إيجور) وهو يصغي لصوت الأغنية القديمة ينبعث من بوق (الجرامافون):

- «أنا لا أريد صفقة.. لكني أطلب منكما خدمة مقابل ما سأقدمه لكما..»

- «أي شيء؟»

- «إن عصابة الأوغاد التي قادتني إلى هنا عائدة عند منتصف الليل لغرض ما لا أدريه.. سيفعلون معي ما فعلوه مع المكسيكي الشهر الماضي.. هل كان هناك مكسيكي ها هنا؟»

دوى صوت الزوج في ذهن (إيجور):

- «آه.. لقد فعلوها ثلاث مرات.. إن هؤلاء الصبية لا يؤمنون بوجود الأشباح.. لهذا كانوا يقودون صبيًا منهم إلى هنا -

مثل ذلك الصبي المكسيكي - ويدعونه يقضي ليلته وحيدًا.. وعند منتصف الليل يتسللون إلى داخل البيت لإرعابه.. وثق بأنهم ينجحون في ذلك!»

قالت الزوجة في إشفاق:

- «في المرّة الأخيرة قاموا بوضع جوال على رأس هذا البائس.. ثم علقوه إلى السقف بخطاف، وراحوا يضربونه على أصول فخديه.. والصبي يصرخ ويولول ظانًا أن الأشباح هي التي تضربه.. يا لها من قسوة..!»

أضاف الزوج:

- «في الصباح يطلقون سراحه، بعد أن يصيبه الذعر بنوع من الخبال.. في العادة

يظل صامتًا فلا يعرف منه أحد أي شيء عن ليلته الرهيبة».
قال (إيجور) في غيظ وهو يتأمل الغرفة:
- «وأنتما؟.. ألا تتدخلان؟»
- «نحن لا نبالي بسخافات الصبية هذه.. نحن نهتم أكثر بالعائلات التي تحاول استئجار البيت.. أو المتسكعين الذين يتسللون إلى الداخل..»
- «لكنّ هذه قسوة!»
- «حين يطير رأسك بالفأس يا بني.. لا تصير هذه الأشياء قاسية جدًّا بالنسبة لك!»
قالتها الزوجة بلهجة لوم لم تغب عن (إيجور)..
قال (إيجور) وهو ينهض من على الأريكة، وقد بدأت الفكرة تختمر في ذهنه:

- «يا سيد ويا سيدة (كيلي).. أنا بحاجة إليكما لتأديب هؤلاء الأوغاد.. ستكون هذه هي الخدمة التي أريدها...»

وعلى شفتيه تلاعبت ابتسامة شيطانية..

❋ ❋ ❋

- ٦ -

اضرب فورًا.. اضرب في المكان الصحيح.. اضرب بكل ما لديك من قوة..

هذا هو شعار الجنرال...

راتا تا تا... بوم!.. رابا تا تا تا... بوم!..

«بحق العذراء (مريم) لتعمن الدماء الأرض..»

«هذه الجهة مغلقة!»

«اخرس!.. إنك تثير أعصابي!.. اخرس!»

* * *

منتصف الليل:

أربعة أشباح تدنو من البيت، يحمل أولها كشافًا صغيرًا.. ويحمل الباقون بضع أكياس ملأى.. الأول هو (بيل) - طبعًا - الذي يتقدم المسيرة كأنه جنرال نازي يخترق شوارع قرية فرنسية محتلة.. إنّه ينوي إثارة هلع البولندي كما لم يحدث طيلة حياته.. سيجعله يبول في سرواله على حد قول (بيل) بلغته السوقية الفظة..

- «(بيل).. أنا خائف!»

- «صه أيها الأحمق.. كيف تخيف وأنت خائف؟»

- «إن.. إن المكان مظلم.. يخيّل إلى أن الأشجار حية تصغي لكلامنا..»

ً

ـ «حقًّا؟ سأجعلها تحمر إذن من بذاءة كلامي!»

وبيد عصبية عالج قفل البوابة.. ودلف الأربعة إلى الداخل.. وعلى ضوء الكشاف اخترقوا الحديقة المظلمة حتى وصلوا إلى تلك الفتحة في جدار المطبخ التي اكتشفها (بيل)، والتي غطاها بلوح من خشب..

هكذا يتسللون إلى الدار دون إحداث جلبة..

قال (بيل) وهو ينزع سترته:

ـ «هل الملاءة معك يا (جو)؟»

ـ «نعم.. ورأس المذءوب»

- «والجمجمة مع من؟»

- «معي..»

قالها أحد الصبية وهو يلوك قطعة من العلكة في استهتار..

- «والضوء الأحمر والسلاسل مع (سام)..»

- «حتمًا!»

- «حسن.. وأنا معي العصي والحبال.. ليكن..»

ثم تأمل عصابته على ضوء الكشاف.. وغمغم في قسوة:

- «أريد أن تخرجوا أقذر وأقسى ما عندكم.. سيكون بابا (بيلي) فخورًا بكم جميعًا.. هيا!»

* * *

أضاءوا كشاف الضوء الأحمر.. ثم ارتدى (سام) - أطولهم قامة - الملاءة ليغطي جسده بالكامل.. وثبتوا الجمجمة فوق رأسه ولفوها بالملاءة ليبدو كأنه هيكل عظمي تحرر من أكفانه...

- «كيف أبدو؟»

- «مروعًا!»

وعلى ضوء الكشاف الذي يلقى ظلًا أحمر رهيبًا على الأشياء، بدأ (سام) يتقدم.

(صرير الأرضية هذا...!)

نحو غرفة الكرار التي - حتمًا - يقبع (إيجور) فيها يرتجف..، في نفس اللحظة وضع (بيل) قناع المذءوب الرهيب على رأسه..، وراح (جو) يحرك السلاسل

محدثَا ذلك الصوت المعدني الكئيب الذي يزعمون أن الأشباح تحدثه..
لا شيء.. المنزل مظلم كالقبر.. صامت كالضريح.
تساءل ذو العلكة الذي حمل الكشاف في يده:
- «أين هو؟»
قال (بيل) في عصبية وقد صار صوته مكتومًا، من وراء قناع الذئب الذي يخنقه خنقًا:
- «فلنتفرق.. ليبحث كل في اتجاه.. وأرجوك أن تبصق هذه التي تلوكها حتى لا أهشم أسنانك!»
وبدأ الأوغاد يتفرقون...

غير ناسين ـ طبعًا- أن يطلقوا الكثير من الـ (هوووه) والـ (وووووه) بصوت جنائزي مكتوم..

كان (بيل) هو أول من دخل غرفة المعيشة..

هناك رأى (إيجور) متكومًا جوار الشمعة على الأريكة، فبدا كقط تعس وحيد....

و من خلف قناع المذءوب ابتسم (بيل) ابتسامة شيطانية.. وتقدم بتؤدة نحو..

(رباه!.. إن هذا القناع يلهب الوجه بالعرق)

الجسد الممدد على الأريكة..

راح يتلوى.. ويحرك جسده بعصبية مصدرًا الأصوات التي يُفترض من المذءوب أن يصدرها...

سيكون مرعبًا على ضوء الشمعة القادم من أسفل.. الضوء منخفض المستوى يعطي تأثيرًا شيطانيًا.. الكل يعرف هذا..

وهنا رأي الرأس يرتفع ببطء.. كان مهشمًا تمامًا والدم المتجلط يغمره..

عندئذ أدرك - متأخرًا جدًّا - أنّ هذا ليس (إيجور).

* * *

(سام) يتحرك في ملاءته وهو يبصر طريقه مستعملًا الثقبين الموجودين أمام عينيه..

كان يستعمل كشافًا صغيرًا، لأن (توماس) حامل الكشاف الأحمر يبحث في مكان آخر..

لا يوجد أثر لهذا البولندي.. هذه هي غرفة المكتب لا أرى أحدًا.. فلنجرب غرفة أخرى..

وهنا رأى أمامه سيدة في منتصف العمر تسد الطريق عليه.. كانت ترتدي مريولة المطبخ.. لكنّ وجهها القسيم ينم عن طيبة ورقة لا شك فيهما..

أجفل ثم هدأ قليلًا وتراجع للوراء خطوة:



من خلف قناع المذءوب ابتسم (بيل) ابتسامة شيطانية ..
وتقدم بتؤدة نحو ..

- «أنت أيها الشاب قد أفزعتني.. لماذا ترتدي هذه الثياب المخيفة؟»

استجمع كلماته ليغمغم في رهبة:

- «مـ... من أنت؟»

- «بل من أنت أنت؟ ومن أين جئت بهذه الجمجمة؟»

قال لها وهو ينزع الملاءة عن رأسه:

- «أنا (سام).. وهذه الجمجمة مجرد دعابة..»

ورفع الجمجمة من على رأسه ليقدمها لها..

(ثمّة شيء غير مريح في كل هذا.. من هذه المرأة)

هنا قالت المرأة في رقة وهي تقبض على خصلات شعرها:

- «حقًّا؟.. أنا مسرورة لذلك لأن هذا الرأس أيضًا مجرد دعابة..!»
قالتها وانتزعت رأسها من فوق كتفيها..

* * *

أما عن (جو) فهو يمشي محركًا السلاسل في يديه، وفي فمه كشاف صغير يتفقد به المكان..
إن هذا المكان مخيف حقًّا.. لا غرابة أن يرى الناس فيه أشباحًا من كل.... نووووووع!
حمدًا لله! ليس هذا شبحًا.. إنّه (سام).. يا له من تنكر متقن! إذن فالبولندي ليس في هذا القطاع.. ليت (بيل) ينسى الأمر برمته

ويدعوهم إلى الرحيل.. دنا من (سام).. وتثاءب.. ثم قال بعدما نزع الكشاف من فمه:

- «إن منظرك مفزع بالفعل.. هل وجدت شيئًا؟»

لا رد...

-«(سام).. تكلّم.. أنا خائف بالفعل فلا تحاول زيادة رعـ...»

لا رد....

هنا تقدم من الملاءة وأزاح طرفيها ليرى ما بالداخل.. وبينما هو يفعل ذلك تذكر شيئًا.. شيئًا مخيفًا...

إن الملاءة التي جاءوا بها كانت نظيفة.. أمّا هذه فهي مغبرة ملأى بالقبع.. معنى هذا أن......

تذكر هذا وهو يفتح الملاءة ليرى ما بداخلها على ضوء الكشاف.......

* * *

الآن نجيء إلى (توماس) حامل الكشاف الأحمر الذي أعاد العلكة إلى فيه وراح يلوكها وهو يتفقد المكان في لا مبالاة.. كان يحبّ العلكة لأنّها تعطيه طابعًا من الاستهتار.. والرعاع يجب أن يكونوا مستهترين..

حينما دلف إلى قاعة الجلوس كان مار آه يفوق الوصف...

كان زملاؤه (سام) و(بيل) و(جو) ممدين فوق الأرائك المغبرة، وقد بدوا أقرب

للموت منهم للحياة...
دنا منهم مذعورًا، ليتفحصهم على ضوء الكشاف الأحمر؛ حين فوجئ بشخص يقف جواره.. جواره..
كان عجوزًا يرتدي الروب وقد تهشّم أكثر جمجمته، واختلط الشعر الأشيب بالدم المتجلط...
احتبس الصراخ في فمه، وانحشرت العلكة في حنجرته..
قال العجوز وهو يشير إلى الباب في صرامة، بصوت غير قادم من هذا العالم:
- «هؤلاء رفاقك على ما أظن.. غادروا بيتي حالًا.. ولا تعودوا ها هنا أبدًا!»
لم يدر الصبي ما يحدث..

يذكر أنه كان يركض نحو الباب جارًا (بيل) من ذراعه، وقد أراح رأس (جو) الأشعث على صدره، وأن (سام) كان يسير كالزومبي معدوم الإرادة نحو الباب الذي انفتح فجأة..

وابتلعهم الظلام......

وأخيرا عاد الهدوء....

لا شيء سوى صوت ضحكات هستيرية تصاعدت من حلق (إيجور) وهو يخرج من مكمنه.. لقد لقنوا هؤلاء الأوغاد درسًا قاسيًا.. أقسى من اللازم في الواقع لأن دورية الشرطة ستجدهم بعد ساعتين يهيمون على وجوههم ذاهلين في شوارع الحيّ.. ولسوف يسفر استجوابهم عن فقدان ذاكرة جزئي، فلا أحد منهم يعرف أين

كانوا ولا ماذا كانوا يفعلون في هذه الساعة.

لقد نال كل من هؤلاء عقدة حياته التي ستبدل مجرى شخصيته إلى أن يموت، وبالتأكيد لم يبق واحد منهم كما هو بعد هذه التجربة..

لقد غزا وجوههم ذات التعبير المرير الكئيب الذي يغزو وجه (إيجور)....

تعبير من عاش أقسى تجاربه...

❋ ❋ ❋

قال (إيجور) ضاحكًا:

- «لقد نالوا جزاءهم...»

قال الزوج وهو يعود لمجلسه:

- «والآن يا (إيجور) جاء دورك لمساعدتنا»
- «أنا مستعد..»
- «سيكون عليك أن تبلغ الشرطة باسم الرجل.. (جيروم سلفستر).. إنك لن تنساه.. أليس كذلك؟»
- «بلى..»
- «سنخبرك بأماكن دفن ضحاياه.. وستخبر الشرطة لاحظ أن لديهم بصمات لا يعرفون صاحبها..، وأنت ستخبرهم باسمه ومهنته والولاية التي يوجد بها الآن»
- «هذا ليس عسيرًا..»
كان الوداع حارًا، وقد أدرك (إيجور) أن الشبحين سيرحلان للأبد بمجرد أن يلقى

(سلفستر) جزاءه..
لكنه لم ينس آخر كلمة قالها الزوج قبل الفراق:
- «إن موهبتك الإلهية يا (إيجور) تجعلك شفافًا كالماء.. يُمكنك أن تنفذ إلى الأرواح وإلى الأشباح..، إنها نعمة.. لكنّها سلاح خطر إلى أقصى درجة، ولسوف يجلب لك متاعب كثيرة آمل أن تنجح في اختراقها..».
كان الشبح صادقًا إلى حد كبير...

* * *

الجزء الثالث

(مانهاتن) - ١٩٥٢

- ٧ -

يا أيام المراهقة العزيزة...

ذلك الحنين الموجود إلى شيء لا تدري كنهة لكنك تحبه بعنف.. الحاجة إلى أن تحلّق بعيدًا.. بعيدًا إلى المكان السحري الذي تتفتح فيه زهور البرتقال، ويتم تفتيت الأقمار لصنع النجوم منها، حيث يبدأ قوس القزح، وتهاجر الطيور وزفرات المحبين، ذلك المكان الذي لم يُرسم على الخرائط بعد، والذي تنتظر فيه الإجابة على أسئلة أبدية مثل: أين تذهب الفصول؟ ومن هي الفتاة التي اختارها لك القدر؟ وإلى أين

تحمل مياه الجدول أوراق (التيوليب) التي رمتها أناملك فيه؟
عندئذٍ تنظر إلى القمر وتتنهد، كأنك تستنشق أشعته الزرقاء الباردة إلى رئتيك.. وتغمغم:
- «رباه!.. إنني أكبر...!»..

* * *

(إيجور) اليوم في السادسة عشرة من عمره..
ستة أعوام كاملة قد مرّت عليه منذ أن كان في العاشرة من عمره، يثرثر مع الأشباح في دار (كيلي).

ستة أعوام منذ كتب لشرطة (ألاباما) يخبرهم بتفاصيل لا تصدق عن سائق شاحنات عجوز يدعى (جيروم).. لقد ملأت أنباء القضية الصحف، لكنّ أحدًا لم يعرف صاحب الخط الطفولي الذي سطر هذه الكلمات.

يا لها من ذكريات!

* * *

يومًا فيومًا كان (إيجور) يزداد سيطرة على مفاتيح قدرته على اختراق الأذهان...

وهو اليوم يعرف أنّ هذه الموهبة ليست قاصرة عليه وحده.. فهناك آخرون في هذا العالم يملكون هذه القدرة، ويعرف أن

اسمها هو (الإدراك الفائق للحس)، وأن دراسات واسعة تجري على هذا الموضوع..

لكنه أدرك كذلك أن قدراته متشعبة.. فجزء منها هو قراءة الأفكار.. وجزء منها هو التخاطر أو (التليباثي).. وجزء منها هو (الوساطة) أو قابلية التخاطر مع الأشباح والأجسام غير الماديّة.. لقد جرب هذا الجزء بنجاح تام من قبل..

كالعادة كانت نعمة (إيجور) هي نقمته..

فإدراكه الفائق للحس جعله يزداد مقتًا للناس.. كل هذا الزيف والنفاق.. كل هذه الشراسة والوحشية..

كاد يؤمن أنه لا يوجد إنسان صادق في هذا العالم..، وكادن قد نزح مع أبويه إلى

(مانهاتن) حيث التحق بالمدرسة الثانوية..
وفي مدينة كبيرة كهذه كانت النفوس أكثر تعقيدًا وغموضًا.. ولم يعد هناك شيء واحد واضح..

لكن هذا لم يمنعه من أن يشعر بلذة المراهقة الأليمة.. وأن يدرك أنه - برغم كل شيء - شاب عادي جدًّا طبيعي جدًّا..

أغاني (الروك أند رول) - اختراع الخمسينات الوليد - وحفلات المدرسة، وسباق السيارات بين الطلبة وبعضهم.. ومحاولة الظفر بموعد لاصطحاب فتاة إلى المرقص..

هذه هي قواعد المراهقة الأمريكية الصارمة...

وكان على (إيجور) أن يجاري هذه القواعد بحذافيرها..

* * *

هناك تفصيل صغير آخر يجب أن نذكره...
لقد حصل (إيجور) على كتيب صغير يتحدث عن محاكمات (نورمبرج) تلك المحاكمات التي أجريت بعد الحرب لقادة النازي.. وأدارها الحلفاء...
شرع يقلب الصفحات، وقد راحت الذكرى الأليمة تتردد في ذهنه...
جنرال (فون أونبرجر)... مذنب...
راتا تا تا تا تاه!

جنرال (هاينزفون شميدت).... مذنب...
(اخرس!.. إنك تثير أعصابي.. اخرس!).. راتا تا تا تاه!
جنرال (سيدلتز جابلر).. فار من الأحكام!
تصلب شعر رأسه...
إنه لن ينسى الاسم ماعاش.. لقد سمعه من العم (أندريه) مرارًا.. وظل يحاول تخيّله.. كيف يبدو هذا الرجل الذي أباد أسرته بالكامل؟ الذي دمر شارعهم وجيرانهم.. أحال الماضي والحاضر والمستقبل إلى كومة من الغبار الساخن.. والآن هو يرى صورة الرجل أمامه..
كان يبدو كأي رجل وسيم آخر في الأربعين من عمره.. شعر رأسه أشقر قصير.. وعلى ياقة سترته علامة

(الصاعقة) وصليب (رومل) الخاص بالقوات البرية يزين صدره...
له عينان زرقاوان نفاذتان.. وتجعيدتان توحيان بقوّة الشكيمة على جانبي فمه.. الأرستقراطية الآرية كما يجب أن تكون.. حين يموت هذا الرجل سيموت وهو يبتسم في تعال..
ولكن كيف يمكن أن تصدق أنّ هذا الرجل سفاح..؟
كانت التهمة ضده تقول: إنّه ارتكب عددًا من جرائم الحرب ضدّ المدنيين في (وارسو) حين كان حاكمًا عسكريًا للمدينة.
يا للامبالاة! عدد من جرئم الحرب!.. لكنّ هذه الجرائم تتضمن القضاء على أسرتك وأصدقائك وجيرانك! ما أهون الموت حين

يكون مجرد خبر في جريدة أو سطرًا في حكم محكمة!..

(ملحوظة من د. (رفعت): يذكرني هذا الموقف بقصة الأديب الألماني (إريك ماريا ريماك) المسماة (كل شيء هادئ في الجبهة الغربية).. حينما مات البطل في نهاية القصة برصاص القناصة؛ كان تقرير القيادة هو: كل شيء هادئ في الجبهة الغربية، أي أن واحدًا فقط مات مما لايُعد خسارة فادحة.. برغم أنّ هذا الواحد كان له أصدقاء وأهل وأحلام لم تتحقّق قط..)

المشكلة الأسوأ هي أنّ هذا الجنرال ما زال حيًا...

ما زال فارًّا ينعم بحريته!...

لماذا لم يقبضوا عليه؟ لماذا لم ينتقموا منه؟

كان يعرف الإجابة: لأنّه لم يرتكب مذابح ضدّ اليهود!

فقط هؤلاء الذين قتلوا اليهود هم الذين لاقوا جزاءهم.. وحوكموا.. بل وتم اغتيالهم ولو كانوا في أطراف الأرض أمّا (سيدلتز جابلر) فهو مجرد جنرال وديع (ارتكب عددًا من جرائم الحرب) التي سرعان ما تنسى...

وأحس (إيجور) بالمرارة....

ثم إنّه عمد إلى صورة الجنرال، فقصها من الكتيب.. وألصقها على الجدار كما يلصق المحب صورة حبيبته.

كان هذا الوجه هو أول وجه يراه حين يصحو وآخروجه يراه حين ينام، ولقد انعقدت بينه وبين صاحبه علاقة مُعقدة من الحب والبغض.. ذات العلاقة التي انعقدت بين جند (مونتجمري) وعدوهم (روميل) في الحرب العالمية الثانية.. كانوا يكرهون (روميل) ويعجبون به.. ويعلقون صوره في خزائنهم.. حتى إن (مونتجمري) القائد الإنجليزي اضطر إلى إجراء علاج نفسي لهم قبل خوض معركة (العلمين)..

(سيدلتز جابلر).. لسوف نلتقي..

أعدك بذلك إن كنت حيًّا...

* * *

لم يكن (إيجور) من الشباب المرموقين في المدرسة، أولئك الذين يصفهم التعبير الإنجليزي بـ (ذوي الشعبيّة).. فهو ضعيف الجسد لا يمارس الرياضة، ولم يكن ذا وسامة ملحوظة.

لكنه كان متفوقا في الدراسة إلى حد ملفت للأنظار، وهذا يعود طبقًا إلى موهبته الخاصّة..

فحين يقول المعلم وهو يبتسم بخبث:

- «سيكون الامتحان مفاجأة لكم..»

كان (إيجور) يسمع صوت الرجل يتردد في عقله بوضوح تام:

«ترى ماذا يفعلون حين أطرح سؤالًا عن ميكانيكا الكم عليهم؟»

وكان الامتحان يصل إلى عقله كاملًا، دعك بالطبع من أفكار المحيطين به في أثناء الامتحان ذاته..

لم يكن يعتبر هذا غشًا.. فهو لم يبذل جهدًا في معرفة ما لا يجب أن يعرفه.. كانت الأفكار تطرح نفسها طرحًا..

* * *

هناك شخص ما لكل شخص.. وكانت (جلاديس) هي الشخص المناسب لـ (إيجور).

الفتاة التي لم تنظر إلى عضلاته الواهنة، ولا أنفه غريب الشكل.. لكنّها نظرت إلى

ذكائه وإلى عينيه الزرقاوين الشفافتين حتى إنها لترى روحه من خلالهما.

قالت لصديقتها يومًا وهي تحاورها:

- «إن هذا الحزن في عينيه هو ما يشدني إليه.. إنه بحاجة لشخص ما.. وأنا بحاجة إلى من يحتاج إليّ»

راحت تلاحقه بكل تلك الأساليب الرقيقة التي يمكن لمراهقة خجول أن تلاحق بها مراهقًا أكثر خجلًا..، وفي الصف كانت هي الوحيدة التي تتحمس لإجاباته.. وتضحك لدعاباته.. وتبدي تعاطفًا غير عادي مع زلاته.

كيف كانت (جلاديس) تبدو؟

لا أرى داعيًا لتضييع الوقت في وصف لون شعرها وعينيها وثيابها.. إلخ، فهذا لا

يعني أحدًا سوى (إيجور).. المهم هو أنه كان معجبًا بها هو الآخر.. وكان لها عقل صاف كقطرة ندى.. عقل دخله كثيرًا، وشم فيه رائحة زهور (الجلاديس)..، وعرف أن صاحبته من البشر القلائل الذين هم في داخلهم أجمل من خارجهم...

الواقع أنها كانت أيامًا لا تنسى في حياة (إيجور).

حفلات المدرسة الصاخبة حيث يصطحب (جلاديس).. ويدوى صوت المطرب الرخيم مرددًا «دعنا نرقص (التويست) ثانية»، عندئذٍ كانت (جلاديس) تدور بعودها النحيل يمينًا ويسارًا.. وشعرها المعقوص يتبعها متأخرًا ثانيتين.. دائمًا متأخرًا ثانيتين.. وعلى وجهها البرىء

الماكر قليلًا - لا يدري كيف - ترتسم ضحكة من القلب..

عندئذٍ كان يشكر الله على أنه وجد في هذا العالم، الذي هو (أفضل العوالم المحتملة)..

وبمرور الوقت تلاشى وجه (سيدلتز جابلر) من أمام عينيه؛ فلا يرى سوى وجهها....

«هلموا.. دعنا نرقص (التويست) ثانية..
كما فعلنا الصيف الماضي...»

❋ ❋ ❋

كم دام هذا الحلم؟
دام عامًا أو أكثر قليلًا.. ولماذا انتهى؟

انتهى لأن الربيع ينتهي دائمًا.. ومنذ بدء الخلقية..

كان هناك (هاري كارلسون).. جاء إلى المدرسة في الشهر الأخير قادمًا من ولاية أخرى....

(هاري) هذا يملك جمال الشياطين.. بالتأكيد تبدو الشياطين جميلة.. وإلا فكيف تجعل الناس يضلون طريقهم؟

كان فارع القامة عريض المنكبين.. يزن أرطالًا لا بأس بها، ويجيد قيادة سيارته الفاخرة بسرعة البرق، دعك من تفوقه في لعبة كرة القدم إلى الحد الذي جعل المدرسة كلها تبح من الصراخ.. (بالمناسبة: كرة القدم الأمريكية لا علاقة لها بما نعرفه نحن.. بل هي لعبة عنيفة

جدًّا يتم ارتداء الدروع الواقية فيها واستعمال اليدين..، أمّا كرة القدم التي نعرفها فيطلقون عليها اسم (ساكر).. ولا يميلون إليها كثيرًا)..

كانت الفتيات جميعًا رهن إشارة (هاري)، وكل واحدة تتمنى أن يحبّها هي...

لكن - كما قلنا هناك شخص ما لكل شخص..

وكانت (جلاديس) هي الشخص المناسب لـ (هاري).

* * *



لكن ـ كما قلنا ـ هناك شخص ما لكل شخص ..
وكانت (جلاديس) هي الشخص المناسب لـ (هاري) ..

- ٨ -

حين استطاع (إيجور) أن يخترقٍ ذهن (جلاديس)، لم يكن ما سمعه باعثًا على الاطمئنان..

«إن هذا الـ (هاري كارلسون) وسيم حقًّا.. وسيم وقوي ويعرف كيف يعالج أموره.. إن الفتاة لتشعر بالاطمئنان معه...»

ثم تنهدت تنهيدة عقليّة كادت تذيب خلايا مخ (إيجور):

«ليت (إيجور) يملك ربع مزاياه.. إن الرقةٍ وحدها لا تكفي كي يصير الرجل رجلًا..»

وشاعرًا بالغصة في حلقه؛ حاول (إيجور) اختراق عقل (هاري) الذي كان جالسًا في الصف يرمق (جلاديس) في إصرار وتركيز.. دون أدنى متابعة لما يُقال من المعلم المتحمس...

ولم يكن ما سمعه مريحًا:

«لذيذة.. أليس كذلك؟!»

شعر (إيجور) بتعاسة بالغة.. لماذا اختارها هذا الوغد دون كل حسناوات الصف اللواتي يناسبنه تمامًا؟ إن الفتاة هشة ولا تحتمل هجمات هذا البطل المغوار.. إن ما بينها وبين (إيجور) هامس لم يجرؤ واحد منهما على تسميته حبًا بعد.. فلماذا هي بالذات دون غيرها؟! ولماذا (إيجور) دون سواه؟

وكانت الإجابة سهلة.. إذ سرعان ما أدرك (إيجور) أن الفتى يريد انتزاع (جلاديس) منه لمجرد أنها له.. كان من هؤلاء الذين يهمهم أن يحرموا الآخرين سعادتهم لمجرد التسلية..

بالإضافة إلى أن الفتى كان يحقد عليه لتفوقه، وهو الصراع المحتم بين سادة العضلات وسادة الأفكار.. كلاهما يمقت الآخر ويعتبره عدوه الطبيعي.. وفي كل صف دراسي يتكرر هذا الموقف: يتحرش أقوى الطلبة بأذكاهم..، كأنما القوى يقول للذكي: دعني أر ما صنعت بذكائك..

استطاع (إيجور) أن يعرف نهاية هذا التودد من (هاري)، ولسوف يتخلى عن

(جلاديس) بمجرد أن تتخلى هي عن (إيجور)..

«إنها رقيقة لكنّها ليست طرازي حتمًا..»

وحدثت الكارثة..

صارت: (جلاديس) أقل شغفًا بكلام (إيجور) وأقل تركيزًا.. لم يعد يجدها على الهاتف حين يطلبها في الموعد اليومي.. وحين يمازحها لم تكن تظهر ما يدل على فهم دعاباته.. بل تعتبر هذا كلامًا عاديًا تنتظر نهايته..، وغدت أفكارها أكثر سوادًا:

«يا للبائس! كيف سيفهم؟ كيف سيتحمل؟ إنّه لن يجد مغفلة أخرى بعدي، وسيموت وحيدًا كالقملة..!».

والآن لم يعد الناس يرون (جلاديس) إلا مع (هاري).. يسير بجسده الرياضي جوارها، ويعاملها كإحدى أميرات القصص..، وكان سرور الأنوثة وكبرياؤها يجعلانها تبدو كبطة فخور، وهي تمشي جواره وتتجاهل الحسد في عيون البنات أترابها...

وعرف الجميع أن (إيجور) قد انتهى...

*   *   *

(إيجور) نفسه هو أول من عرف هذا؛ لأنّه اخترق العقلين وعرف كل شيء قبل أن يحدث شيء..

آثر أن يبتعد لكنه قرر أن يخوض مغامرة أخيرة يحاول بها إقناع (جلاديس).. اتصل بها هاتفيًا طالبًا اللقاء أمام دارها..

حاولت التنصل بفتور لكنه أصر..

- «من فضلك يا (جلاديس).. ستكون هذه آخر مرة..».

ووضع السماعة قبل أن تجد ردًا..

وبعد نصف ساعة وجدها واقفة أمام دارها، وقد دست يديها في جيبي سروالها وراحت تلوك قطعة من العلك، واستندت بكوعها إلى صندوق البريد لتبدو مسترخية.. لكنه رأى قلقها في ذهنها...

قال لها وهو يستند إلى الجانب الآخر من الصندوق:

- «(جلاديس).. أنت لم تعودي لي.. أليس كذلك؟»

في ضجر هتفت:

- «أوه! (إيجور).. لم يتغير شيء.. نحن صديقان.. وسنظل كذلك»

- «لم أردك صديقة..»

- «ستجد ألف (جلاديس) أفضل مني..»

اللفظة الخالدة التي تقولها النساء منذ ملايين السنين الرجال لا يملن إليهم.. لو كانت هناك (جلاديس) أخرى لما كانت هناك مشكلة.. لكنّ هناك واحدة فقط في العالم.. وقد ضاعت!

ابتلع ريقه وقرر أن يلقى ورقته الأخيرة:

- «(جلاديس).. إنّه ينوي أن ينهي علاقته بك، بمجرد أن تصيري طوع بنانه..»

- «هذا ما يُقال دومًا!»
- «أنا لا أتكهن.. أنا متأكد..!»
- «وما الذي يجعلك كذلك؟»
- «لأن.. لأنني أقرأ الأفكار..!»
كما هو متوقّع ضحكت في عصبية.. فهذا المعنى يمكن أن يُفهم بشكل مجازي.. ولم تبدُ على استعداد لتصديق حرف..، قال لها وهو يبلل شفتيه الجافتين بطرف لسانه:
- «منذ الطفولة وأنا أقرأ الأفكار ولا أدري كيف.. هل تريدين أن أقول لك ما يجول بذهنك الآن؟»
- «سيكون هذا مسليًا..»
- «تفكرين في المعنى التالي: إن فرصة أن يحبك فتى مثل (هاري) لا تأتي سوى مرة واحدة في العمر، وأنت لن تدعيها

تضيع من أجل بولندي عاطفي.. أليس كذلك؟»

نظرت له في دهشة للحظة.. ثم هزت رأسها:

- «هذا لا يحتاج إلى ذكاء كي تخمنه..»

- «حسن أنت الآن تعبثين في جيبك متسائلة عن كنه هذا الشيء المعدني الموجود بداخله.. هل هذا صواب؟»

مدت يدها بعد أن أخرجتها من جيبها.. وتأملت المفتاح الذي في كفها.. وغمغمت:

- «إنّه مفتاح (لورين).. لقد نسيته معي.. ولكن كيف خمنت؟»

- «لأنني أقرأ الأفكار.. هل نسيت؟!»

فتحت فمها لتتكلم.. لكنه بادرها بالكلام أولًا:

- «الآن ستقولين: أتوسل إليك يا (إيجور).. دعني وشأني.. أنا لم أعد طفلة.. ولم أعد أريدك بعد اليوم..، هل أصبت؟»

نظرت له في استسلام.. وتنهدت:

- «حسن.. ربما كنت تملك نوعًا من الحاسة السادسة.. أو أن وجهي مرآة لأفكاري أكثر مما ينبغي..، هذا لن يغير شيئًا من قراري: كُفّ عن ملاحقتي وانس الماضي.. أوكاي.؟»

تنهد هو أيضًا في استسلام:

- «لقد نلت حريتك...»

واستدار مبتعدًا....

هل هي الأمطار أم الدموع تلك التي تبلل خديه؟ ليس واثقًا.. فلا فارق هنالك.. سواء

أكان هو من يبكي أم السماء...

* * *

- «لقد تخلى عنها!»

راتاتاتاتاه! «هذه الجهة مغلقة!».. جنرال (سيدلتز جابلر) فار من (نورنبرج).. «هيه يا أصفر.. إن البولنديين جبناء..»

ويستدير مدفع الدبابة ببطء نحوه...

راتاتاتاتاه! بوم!.. «اخرس»

- «إن (هاري) سريع الملل.. لم تعد تمثل له شيئًا»

- «هي ليست طرازه على كل حال...»

راتاتاتاتا!.. «اخرس.. إنك تثير أعصابى.. اخرس!»

بدأت الأقاويل تنتشر.. وراحت (جلاديس) تذبل.. سرى الشحوب إلى وجنتيها وصارت أكثر صمتًا وشرودًا.

اكتسبت ملامحها طابع الخبرة المروعة.. طابع من عرف قبل الأوان ما كان ينبغي ألا يعرفه...

ذات الطابع على وجه (إيجور)، وعصابة (بيل) بعد حادثة البيت المسكون إياها....

لقد تخلى عنها (هاري) سريعًا.. وبدون أن تهتز له شعرة..

وأدرك (إيجور) أسفًا أنها تحطمت إلى الأبد، وأنها تحتاج إلى عشر سنوات حتى تثق برجل آخر..

هذا إن كان لها أن تثق بأحد ثانية، عرف كذلك أنها لن تعود له أبدًا.. فكرامتها

والشعور بالذنب يحجباتها عنه
بهذه السهولة والبساطة تحولت أحلى سني عمرها إلى أتعس وأظلم فترة تمر بها....
لقد ذبحها (هاري) ذبحًا..
راتاتاتاتا!..
«اقتلوهم وادفنوهم هنا!..».. «هذه الجهة مغلقة!».. بوم!!

* * *

(هاري كارلسون) الوسيم محطم القلوب يجلس في كافتريا المدرسة يمزح مع رفاقه، ويلتهمون ساندوتشات (الكلاب الساخنة) ويجرعون الكولا، ويثرثرون.. عن الفتيات قطعًا..

كان هذا حين مشى (إيجور) في هدوء إلى المائدة التي يجلس إليها.. لم يلاحظ أحد أنه تناول زجاجة (الكيتشاب) - الصلصة الحارة حتى لا يغضب المعربون - ورفعها.. وبكل إصرار أفرغها فوق رأس (هاري)، الذي لم يجد الوقت الكافي ليندهش...

ساد الصمت المكان...

وثب (هاري) وفمه ما زال مليئًا بالطعام، والشطيرة في يده، وقد تلوث رأسه ونصفه العلوي بالصلصة..

- «هل؟ هل جننت؟»

كان رأسي (إيجور) عند صدره.. كفه في حجم رأس (إيجور).. صفعة واحدة ستطيح بالأخير إلى الحائط....

لكنه تمالك نفسه..

جذبه من مجمع ياقتي سترته ليدنيه منه، وفي عينيه معنى القتل.. وقرب أنفه من وجهه وصاح:

- «أنا لا أريد ارتكاب جريمة!»

كان واضحًا معنى ما يقول، فهو قادر على إزالة (إيجور) من على ظهر البسيطة دون جهد...

قال (إيجور) في هدوء: ا

ـ «أنا أتحداك يا (هاري كارلسون).. يجب أن تدفع ثمن إيذائك لشخص معين يهمني أمره..»

بدا الذهول على وجه (هاري)..

ـ «تتـ.. تتحداني؟ هل تمزح؟»

ـ «بالعكس.. لقد أهنتك وعليك أن تقبل التحدي لحفظ كرامتك أمام الجميع!»

ـ «عم تتحدّث بالضبط؟!»

ثم نظر إلى من حوله.. وقهقه فتناثر الطعام من فمه:

- «يا شباب.. هذا الفتى يدعوني إلى المبارزة!»

- «هو وووووه!»



وبكل إصرار أفرغها فوق رأس (هارى) ، الذى لم يجد
الوقت الكافى ليندهش ..

- «اقتله يا (هاري)!»

* * *

«يا شباب.. لقد جرؤ على ضربي.. تصوروا هذا! لقد جرؤ البولندي على ضرب (بيل هاكمان)!!»

راتاتاتاتاتا! بوم... راتاتاتاتات!.. بوم!

* * *

قال (هاري) وهو يسترخي في مقعده، ويجفف الصلصة من على شعره ووجهه بالمنشفة:

- «أية مبارزة؟ بالسلاح أم بقبضات اليد؟ أنت تعرف أنني قادر على سحقك دائمًا..»

قال (إيجور) بذات الهدوء:

- «إن معك حقًّا في هذا.. لهذا أقترح طريقة أخرى لتصفية الحساب تتيح تكافؤ الفرص.. إنها تعتمد على الشجاعة فحسب، الشجاعة ولا شيء آخر..»

- «سأكون الأفضل.. كالعادة!»

كان يسير مندفعًا نحو المصيدة التي نصبها له (إيجور)..

مصيدة الهلاك....

* * *

- ٩ -

اللقاء في معمل الكيمياء - بعد أسبوع:

شد ما يمقت (إيجور) (هاري)! ليس الأمر نابعًا من الغيرة بل هو نابع من كراهيته للقسوة.. القسوة في كل صورها.. إنّه يمقت (جابلر) لهذا كره (بيل) وشنأ (هاري).. إنهم جميعًا يملكون الملامح ذاتها.. ذات النظرات الباردة التي لا تعبأ بآلام الآخرين.. ذات الصلافة والإحساس بالقوة..

كان عليه أن يدمّر (سيدلتز جابلر)..

لهذا بدأ بتدمير (بيل).. والآن جاء دور (هاري).. كلها درجات سلم تقود إلى

(جابلر)....

❋ ❋ ❋

كان المكان مظلمًا فلم يجسر أحد على إضاءة النور الكهربائي.. لكنّ الكشافات كانت تؤدي الغرض...
كشاف في يد (إيجور) وكشاف في يد (هاري)، وكشاف في يد (إميل) صديق (هاري) والذي جاء كشاهد على ما سيتم..
وكان هناك رجل من أصل بولندي يُدعى (سوبار) دعاه (إيجور) كشاهد له..
كان (هاري) يبتسم بثقة لكنّ (إيجور) سمع أفكاره:

«رباه... ماذا جاء بي ها هنا؟.. إن المكان مخيف ليلًا!»
قال (إيجور) بعد ما انتهت واجبات التعارف:
- «كما قلنا آنفًا يا (هارى).. الطريقة الوحيدة للمبارزة بيننا هي الاعتماد على الشجاعة والحظّ.. الأولى هي المقياس الوحيد لرجولة الرجل.. والثاني يسميه البعض حظًا وأسميه أنا عناية السماء..»
- «اختصر..»
قالها (إميل) في نفاد صبر وهو يتأمل المكان في اهتمام...
ستكون كارثة لو عرفت الإدارة بأمر تسللهم إلى المعمل ليلًا.. إن (إيجور) هذا مخبول حقًّا، ولولا حماس (هاري)

وإصراره على التحدي ما قبل (إميل) أن يأتي معه ها هنا..
قال (إيجور) في نفاد صبر وقد ضايقته أفكار (إميل):
- «إن ما سنقوم به حالًا لهو اختبار للشجاعة والحظّ معًا.. هات الزجاجتين يا (سوبار)..»
مد البولندي يده إلى جيب سترته، فأخرج قارورتين من النوع المستعمل في معامل الكيمياء.. ووضعهما على المائدة.. كانتا تلتمعان بشكل شرير في ضوء الكشافات..
قال (إيجور):
- «سنلعب الآن اللعبة القديمة الشهيرة: من يشرب السم؟.. إن واحدة من هاتين القارورتين لا تحوي سوى الماء..

والأخرى تحوي تركيزًا عاليًا جدًّا من سم (السيفين) الذي يستخدم كمبيد حشري..، سيكون على كل منا أن يجرع زجاجته في نفس اللحظة تقريبًا أمام الشاهدين.. وعندئذٍ سيموت أحدنا.. وهو من يفتقر إلى الحظ!»

هتف (إميل) في حنق وهو يجذب ذراع صديقه:

- «يا للسماء!.. ويظن أننا سنشارك في هذا السيرك؟ هيا بنا يا (هاري) ودع هراءهما لهما..»

كان (هاري) مبلبل الفكر حين أضاف (إيجور):

- «وهنا يأتي دور الشجاعة.. إن من يرفض هذا الاختيار سيحكم على نفسه

بالجبن، وتعرف كل المدرسة الثانوية أنه رعديد فر من التحدي ..»

هتف (هاري) وهو يرمق الزجاجتين:

- «لكنّ الشرطة.. الناجي لن يفلت من الشرطة»

- «بالعكس.. إن المراهقين ينتحرون لسبب أو لآخر.. أنا بسبب فشلي في الحب وأنت بسبب فشلك في الدراسة.. ستقول الشرطة إن المتوفى تسلل إلى المعمل وابتلع زجاجة (السيفين) بعيدًا عن الأنظار.. أمّا الباقون منا فسوف يلزمون الصمت.. لأنّهم قد تورطوا في الأمر بما يكفي..»

صاح (إميل) في عصبية:

- «هيا بنا يا (هاري).. دعك من هذا..»

ابتسم (إيجور) في ثقة ودس يديه في جيبه:

- «ليكن.. لو كنت مكانك يا (هاري) لما جازفت مع بولندي مجنون مثلي.. سأعود إلى داري وأنعم بعشاء دسم، لكني غدًا سأخبر كل مخلوق في الكون عن قصتنا الصغيرة..».

لو كان (هاري) أكبر بعشر سنوات لترك كل هذا.. لكنه كان في عنفوان الشباب حيث تغلى حمية الجاهلية وشهوة التحدٍي في الدماء، ويصير الموت نفسه مقبولًا حتى لا يتهم بالتراجع.. كان (إيجور) يعرف أنه سيقبل..

- «أيها القذر!.. إنك قد وضعتني في شرك لا مفر منه»

كانت هذه من (هاري) طبعًا..
هنا توقف (هارى) وابتلع ريقه وقال في ريبة:
- «وما الذي يضمن أنك لم تتلاعب بالقارورتين؟ يمكنك دومًا أن تضع علامة على القارورة المأمونة»
قال (إيجور):
- «ترى أن القارورتين متماثلتان في الحجم والشكل.. وعلى كل حال يُمكنك أن تختار قارورتك أنت أولًا فينتفي الشك..»
هتف (إميل) في عصبية للمرة الرابعة:
- «إذن ربما جعلك تختار القارورة السامة بالإيحاء»
- «كفاك سخفًا يا (إميل)..»

ثم إن (هاري) رفع رأسه وأخذ نفسًا عميقًا:
- «ليكن.. هيه!.. أنا أقبل التحدي لمجرد أن أعلمك أنني أفضل منك.. وليكونن الحظ في جانبي كما كان دائمًا..»
ابتسم (إيجور) في توجس:
- «هذه روح طيبة.. أعتقد أنك - على الأقل - رجل شجاع يملك أحشاءه..»
قال (إميل) في تعاسة وهو يتامل الزجاجتين:
- «لحظة.. إن رائحة (السيفين) مميزة بالتأكيد... ويستطيع من يشمها أن يتوقف في آخر لحظة..»
- «نقطة جيدة..» - قال (إيجور) - «ولهذا سيسد كل منا أنفه بالقطن قبل فتح

قارورته..»
وأضاف وهو يتأمل العرق البارد على جبين (هارى):
- «يجب أن أصف لك ما ينتظر الضحيّة.. أولًا عرق غزير ينهمر على الجبين.. ثم القيء.. والإسهال.. بعدها تضيق الشعب الهوائية وتبطئ نبضات القلب، وتتسع الحدقتان.. ثم تبدأ تشنجات مريعة تنذر بالغيبوبة التي لا صحو منها..»
ابتلع (هاري) ريقه.. وغمغم في ضيق:
- «وفر معلوماتك لنفسك.. ولنبدأ..»
ومد يده ليختار قارورة..
«هذه؟ لا.. لا.. تبدو خبيثة الشكل.. ربما هذه؟ ولم لا تكون الأولى؟

فلتأخذني الشياطين إن لم تكن الثانية.. ولكن.. لحظة.. إن هناك قطرات جافة على هذه الزجاجة.. لابد أن زجاجة السم تم ملؤها بحذر باستعمال قمع.. أمّا زجاجة الماء فتم ملؤها من الصنبور.. هه؟ معنى وجود قطرات جافة أنّ هذه هي زجاجة الماء.. لابد أن الأمر كذلك!»

وفي ثقة اختار الزجاجة ذات الجدار الملوث..

تناول (إيجور) الزجاجة الأخرى في صمت جنائزي.

وفي تؤدة أخرج (سوبار) قطعًا صغيرة من القطن ليسد بها فتحتى أنف كل منهما..

وأمام عيني (إميل) المذهولتين رفع (سوبار) يده، معلنًا بإنجليزية رديئة:
- «حان الوقت.. اشربا!»

❋ ❋ ❋

راتاتاتاتا!.. بوم!...
«اخرس.. إنك تثير أعصابي.. اخرس!»

❋ ❋ ❋

الآن يقف الفتيان يتبادلان النظرات، وقد أفرغ كل منهما قارورته في جوفه.. يرسم (هارى) ابتسامة واثقة على وجهه ويتأمل

خصمه.. ترى من الذي سيمسك ببطنه ويموت الآن؟
بعد دقائق ثلاث قال (إيجور) في تؤدة:
- «لقد تعمدت رش قطرات من الماء على قارورة السم.. كنت أعلم أنك ستلاحظها!!»
«هيه؟ تعمد ذلك؟ هو بالتأكيد يمزح.. إذن أنا.. لا.. لا يمكن.. إنها دعابة ثقيلة منه.. ولكن ما هذا العرق الذي يغمر جبيني؟ أريد أن أ.. أقيء يء ء ىء..»
ظل (إيجور) يرمق (هاري) في ثبات وأردف:
- «أشكرك يا (هاري) على شجاعتك.. لكني أريد منى - مع سكرات الموت - أن تتذكر وتندم على كل دمعة سالت من عيني

(جلاديس) أو عيني... أريد منك في الجحيم أن تذكر أنك حطمت حياتينا..»
وضحك في وحشية..
في اللحظة التي التوى فيها (هاري) على بطنه.. وفي ثوان أفرغ ما بأحشائه.. وعلى الأرض سال خيط من طرف سرواله لم يحتج أحد للتساؤل عن كنهه..
أمام عينيه الذابلتين المذهولتين رأى (سوبار) يخرج من جعبته كاميرا ذات فلاش يلتقط بها صورًا له.. كليك! كليك!
«المجنونان! إنهما يصوران لحظات مصرعي! هل هناك قسوة بهذه الدرجة حقًّا؟!»
وراحت شعب رئتيه تصدر ذلك الأزيز المتحشرج الذي (هواء!.. أريد هواء!)

أثار هلع (إميل) فصاح وهو يركض إلى الباب:

- «إسعاف!.. طبيب!.. إنّه يموت!»

قال (إيجور) للمحتضر وهو يجمع حاجياته المبعثرة في المكان، وينتزع قطعتي القطن من أنفه وأنف (هاري):

- «إن الأمريكان لخاسرون سيئون.. هو ذا صاحبك لم يقبل قواعد اللعبة كما رسمناها.. لن أعطلك كثيرًا يا صاحبي لأننا سنفر هاربين كما تعلم.. نلقاك في الجحيم!»

- «لا.. لا تتركاني.. إنني أوووووع!»

هكذا صار المعمل بركة من القيء والإسهال..

وأمام عينيه الخابيتين وهو يهوي أرضًا؛ رأى (هاري) البولنديين يفران.. ولم ينسيا أن يلتقطا له صورة أخيرة....

* * *

في المساء التالي قال مدير المدرسة لزوجته:

- «لم أعد أفهم هؤلاء الشباب.. تصوري (هاري) هذا.. بطل رياضي بكامل لياقته يتسلل إلى المعمل ليلًا.. لماذا؟ لاحتساء زجاجة من الصودا.. والغريب أنه ملأ وصديقه الدنيا صراخًا.. وطلب الإسعاف ليجدوه قد تقيأ ما بمعدته كلها.. وأغرق المعمل بالإسهال؛ مؤكدًا أنه شرب زجاجة من (السيفين) السام..»

- «وماذا حدث؟»

- «لا شيء.. غسيل المعدة لم يجد سوى الصودا.. قال هراءً كثيرًا عن البولندي (إيجور) وعن مبارزة من أجل فتاة.. لا



هكذا صار المعمل بركة من القيء والإسهال ..

أفهم حرفًا من كل هذا..»
قالت وهي تطفئ المصباح بجوار فراشها:
- «إن الشباب هو الشباب.. وأنت؟ ألم تكن بهذا الخرق حين كنت في عمرهم؟»
- «ربما.. لكني لم أشرب الصودا في معمل مظلم قط..»

* * *

وجلس (إيجور) في نافذة داره يرمق الطريق.. ثمة طفلة على دراجة تحاول العبور..، وكلب صغير يبصبص بذيله.. وعصفور يدندن على غصن شجرة..
السلام...

هكذا خلق الله العالم ليبقي.. هكذا أراده الله أن يكون.. ويجب أن يظل كذلك حتى لو حرقنا الأشرار أحياء...

لقد انتهى (هاري) للأبد...

كل المدرسة تعرف قصته الآن.. ورأت صوره وهو يتلوى ويقيء لمجرد أنه شرب بعض الصودا التي حسبها سامة..

لكم ضحك رجال الإسعاف.. وضحك الأطباء.. ثم ضحك الطلبة حين بلغتهم القصة.. أي رعديد هذا!..

لكنهم لم يعرفوا أن (إيجور) هو من أوحى للفتى بكل هذا.. اخترق عقله وزرع فيه الإحساس بالغثيان.. ورغبة الإسهال والألم... والخوف..

حتى غدا كل شيء حقيقيًا مرئيًا....

كانت زجاجتا الصودا جيدتين.. لكنّ حين يمتزج الإيحاء بالترقب تصير قطرة الماء لها قوة الأحماض وخطرها..

لقد صار (هاري) هو مهرج الصف.. بعدما كان زعيمه..

ارتسم على وجهه ذلك التعبير.. تعبير من عاش أقسى الخبرات مبكرًا جدًّا، واعتزل الحياة الاجتماعية.. ولم يعد أحد يعبأ به...

لقد ذبل كما ذبلت (جلاديس) بسببه يومًا ما...

والانتقام بعد هذا ـ الحق أقول ـ كان ضروريًا.. وكان (إيجور) عادلًا فلم يقتله برغم أنه يستحق ميتتين..

* * *

كان (إيجور) يكبر...

وغدًا يأتي دور (سيدلتز جابلر)..

سيسحقه كما سحق كل الأشرار في حياته، بعدما انتهى ذلك الطفل الوديع إلى الأبد..

فقط أين هو؟ وماذا يفعل الآن؟..

كيف سيكون الصراع بينهما؟

هذه هي نهاية الجزء الثالث من القصة، وفي الرواية القادمة نستمر مع (إيجور) في فترة نضجه ونعرف أكثر عن موهبته ونعرف كيف ظفر بها..، سنعرف أنّ هناك آخرين مثله ربما يفوقونه في الموهبة..، سيكون جزءًا شائقًا يصير فيه (إيجور)

ضيفًا فائقًا للعادة في عالم... ما وراء الطبيعة.

د. رفعت إسماعيل

القاهرة

[تمت بحمد الله]

رقم الإيداع: ١٦٠٦

المطبعة
العربية
الحديثة
٨ و١٠ شارع ٤٧
المنطقة الصناعية
بالعباسية
القاهرة ت:
٢٨٢٣٧٩٢ -
٢٨٣٥٥٥٤

الفهرس

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة



د. أحمد خالد توفيق

أسطورة إيجور

إن (إيجور) يجيد الاختراق.. (إيجور) يسمعهم يفكرون.. (إيجور) يعرف نواياهم.. (إيجور) يعرف كيف يجتاز ردهات العقل البشري المعقدة دون أن يضلّ طريقه .. من هو (إيجور) ؟
كيف صار هذا الشخص المخيف ؟
إن لهذا قصة طويلة تبدأ كما يلي......

العدد القادم : أسطورة الجنرال العائد

ـــــ

الثمن في مصر
وما يعادله بالدولار الامريكي في سائر الدول العربية والعالم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت: ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس: ٢٨٢٧٠٠٢

Notes

[←1] Extrasensory perception